



غسان الجباعي

قهوة الجنرال

رواية | دار نون للنشر

قبل أن يخرجوك من الزنزانة يطلبون منك أن تدير لهم مؤخرتك.. يقيدون يديك إلى الخلف ويضعون الكيس الأسود في رأسك. كانوا يسمونه "طمّيشة"، وهي تستخدم عادة للبغال، وكنت أسميه، على الطريقة الإسبانية /نقاب المرايا ../كان الإسبان يغطون المرايا حداداً على المحكومين بالموت. وكان الجلادون يغطون عيوننا كي لا نرى عيونهم. كانوا في الحقيقة يضعون الطميشة، ليس على وجوهنا نحن إنما على وجوههم، وهم لا يدركون أنك تستطيع أن تراهم بشكل أوضح، عندما يغمضون عينيك. يمسكون برأسك من الخلف ويدفعونك أمامهم ممسكين بقذالك. يصعدون أدراجاً. تعد الدرجات. يفتحون أبواباً. يغلقون. تعد الأبواب.. يتوقفون يتقدمون ينزلون ينعطفون يميناً يساراً، يدورون.. يوجهونك حيثما يريدون، ولا تدري إلى أين تسير.. يوقفونك أخيراً أمام جدار. تسمع أصوات تعذيب، تصرخ مستنجدة بصوت قريب واضح: «آآآخ.. دخيلا.. ك.».. ثم يعبر من جوارك رجل ملهوف يصيح: «وين الدكتور!؟ ولك نادوا للدكتور بسرعة. ولك بسرعة. صار بدو يموت».. وتسمع وقع أقدام وجلبة وتظن أن أحدهم مات تحت التعذيب فعلاً، أو أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة..

قهوة الجنرال

Qahwat Al-General by Ghassan Al-Jibai

اسم الكاتب: غسان الجباعي / عنوان الكتاب: قهوة الجنرال
الغلاف والإخراج الفني: الناصري
الطبعة الأولى 2014 / 2000 نسخة / المطبعة الوطنية - عمان: الأردن



ISBN: 978-91-87373-56-5 / ©دار نون للنشر
ص.ب ٤٠٠٤٤ رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة
www.dar-noon.com

هذا الكتاب صدر بالتعاون مع:

جائزة المزرعة ٢٠١٤ - رابطة الكتاب السوريين - المتوسط لتنمية القراءة والتبادل الثقافي

غسان الجباعي

قهوة الجنرال

جائزة المزرعة ٢٠١٤ - المركز الثاني - رابطة الكتاب السوريين

دار نون للنشر



-١-

حلّت محلّه الفقاعات

مقعدان من حجر فوق جرف يطل على البحر..

لم يتغير شيء في المشهد السماوي سوى أنهم نصبوا شباكاً من القضبان الحديدية العملاقة، تعزل اليابسة عن البحر أو البحر عن اليابسة.. قضبان خرافية تقطّع السماء إلى مربعات صغيرة زرقاء لها غيومها.. لا أحد يعلم من ابتكرها. شياطين البحر، أم زواحف اليابسة؟؟ لا أحد يعلم علمها إلا الفوارس المضيئة وأرواح الراحلين..

خلف القضبان مقعدان قديمان مثل تابوتين بشاهدتين، يدير كل منهما ظهره للآخر.. أحدهما يتجه نحو الشرق والثاني نحو الغرب. أحدهما يواجه الماء والآخر يواجه التراب..

على المقعد الأول كهل جاف يابس الوجه يتنصت على كلام الموج بأذنين مستديرتين، ويكاد الزبد يغسل قدمه الخشبية الممدودة إلى البحر أكثر من اللازم..

على المقعد الثاني فراغ تملؤه امرأة ممتلئة، ترفع وجهها الترابي نحو الجبل الشاهق ولا تراه. عيناها مطفأتان وحلمها الوحيد بعيد خلف الضباب..

- **«هنا تنتهي اليابسة ويبدأ الماء»..**

- **«هنا ينتهي الماء وتبدأ اليابسة»..**

جبل وبحر وذاكرة رمل، ومقعدان من حجر وحشي عتيق، غطته الطحالب

ونخرته الرطوبة ورغوة العواصف.. حجر وطني، أو مستوطن، وطحالب محلية درستها الريح.. عفن مزمن باهت ونقوش غزاة عتّقتها العداوة اللولبية والثأر القديم. هنا ترتفع المناديل مبللة بالدمع، ملوحة للراحلين. وهنا يبدأ الانتظار. تبدأ رحلة الملح. يبدأ الوداع.. هنا ينتهي الموج، يصبح اللقاء أملاً، وهنا ينضج النسيان ويستلقي على قفاه مخموراً.. هنا الشمس، ما زالت تجهّز أوشحة الحريق، ثم تغطي وجهها بنقاب الليل. وهناك الغابة ما زالت تطفو فوق ضباب مزقته رماح الضوء.. هنا الأمواج تثور، تبصق على الصخور، تلعق زبد الملح وتعيد دموعها إلى الموج، وهناك الصمت الأزلي الذي يحرسه شهيق الأشجار وزفيرها وتخفقه دقات القلب وأنين الريح..

يابسة وقضبان وماء مالح، وغيوم تمزق ثيابها وتضحك عند حافة الأفق الأخيرة. ومقعدان قوّسهما الزمن ووطأة الذين جلسوا عليهما أمام الأزرق اللانهائي. مقعدان صامتان جداً. قديمان جداً، وعجوزان أكثر مما يجب، كلما طلع الضوء وكلما غاب، همس أحدهما للآخر جملة واحدة في اليوم:

- **«انتظر حتى يغيب الضوء..»**

منذ عقود والرجل يحاول أن يرفع سبابته ويبدأ الكلام، فتصده المرأة بإشارة الشجرة العاتبة، وعندما يغيب الضوء وتفصح العتمة عن ثقوبها الذهبية، تحاول المرأة البوح بأقل الكلمات الممكنة، الغامضة والأكثر وضوحاً، ولكن الرجل يهمس بدوره:

- «انتظري حتى يطلع الضوء..»

ويطلع الضوء ويغيب. يمحو النجوم ويعيد رسمها من جديد.

منذ الأزل، وهو يطلع ويغيب: قبل الروح، قبل القلب وتقوّس الأضلاع وفطنة الأصابع. قبل الموجة والصخرة والنورس، قبل الريح المواتية والمدّ الأخرس، وقبل الجسد المنتصب واللغة.. منذ أن طفت خشبة وانتفخ شراع، وبكت غيمة عابرة فوق الجمر.. منذ المغارة والنار والبذرة والبارود.. منذ القبلة

الأولى والولادة الأولى والموت. منذ أول حرب بين شقيقين، وبعد ألف حرب وحرب وصلح وسلام. بعد رحيل الأساطيل وضجيج البوارج وصدأ الحديد والدخان، والضوء يطلع ويغيب.. كم أملٍ ضاع خلف الأفق المجهول وأملٍ جلس بين أنياب الصخور منتظراً أن يضيع.. تبدل الركاب، مقيمين وعابرين وفرادى وجماعات وأزواجاً.. كم تبدل الركاب والسفن والمقاعد وتبدلت الهموم والرايات.! أصبح المقعدان متهالكين زلقين كالزجاج، يلمعان من احتكاك المؤخرات بالحجر: مؤخرات رجال ونساء وأطفال وعجائز، مؤخرات عسكرية وبحرية وسياحية، ومؤخرات صيادين وتجار رقيق ومستشرقين وقراصنة وقناصل دول وقطاع طرق وعشّاق ودبلوماسيين وعاهرات وسياسيين وجواسيس وقتلة ومهربين.. كم تبدلت المناديل وتبدلت النوارس والمراكب والركاب وعيون الجالسين والأشرعة.! وبقي المقعدان. كل منهما يسند ظهره إلى ظهر الآخر، وكل منهما يهمس للآخر جملة واحدة في اليوم:

- «انتظري حتى يطلع الضوء..»

- **«انتظر حتى يغيب الضوء..»**

ويغيب الضوء. وتشيح المرأة بوجهها عن الجبل الشاهق..

كانت تستطيع أن تلتفت أخيراً نحو الرجل. أن تحدق فيه كما لو أنها تراه لأول مرة وتبدأ معه تدبيج الكلام.. كلام ناضج كالخبز، ذابل كالزبيب. كانت تستطيع أن تراه.. أن تحدق فيه كثيراً وتصمت قليلاً وتلغو في بئر عميقة مرصودة بعبيد الماء.. لكنها لم تلتف إليه، بل التفتت إلي أنا. هزت رأسها وابتسمت لي أنا، ثم قالت متواطئة:

- **«ما بدك تشرب قهوة!؟»**

شَبَه غريب بينهما. شبه التاريخ والتجاعيد والذاكرة: أذنان صامتتان. فك عريض. فم كبير بلا أسنان. شاربان أشعثان. ندبة غامضة كجرح فوق الجبين. وجه نحاسي شبه منحرف. رأس مدور كالكرة، ثقيل كالنعاس، يغرق بين منكبين

منحنيين. ذراعان طويلتان ورقبة قصيرة.. يبدو للنظرة الأولى متسولاً أحدبَ، ذراعُه لم تعد تقوى على حمل كفه الممدودة نحو الأفق، فانكسرت، وذبل النور في عينيه حتى كاد أن ينطفئ.. لولا هذان الشاربان وتلك الندبة القاسية فوق الجبين، وتلك القدم اليمنى المستعارة، الممدودة نحو الموج أكثر من اللازم.. ولولا شعرها الطويل المصبوغ بالشيب ويداها الصغيرتان، وصدرها المترهل الممصوص، لقلت إنهما هما.. بقايا ذكر وأنثى. بقايا لحم تآخى حتى بات كل منهما نسخة من الآخر: وجه بشري واحد مسيّج بالقطن. عينان صغيرتان في حفرتين عميقتين. حاجبان نافران كثيفان. فم واحد. أنف واحد. صوت خشن واحد. جسد واحد في جسدين ضئيلين، يتكئ ظهر كل منهما على ظهر الآخر: هي ترمق الأخضر الشاهق الأزلي المتجدد وتكاد تنطق، وهو يواجه الأزرق الصاخب الخافق ويكاد يصمت..

يستطيع، إن أراد، أن يمضي. أن يقف ويمضي. أن يضع حبّة دواء تحت اللسان، ويتكئ على زنديه المكسورين ويبتعد عن المكان. يستطيع أن يخلع قدمه الغريبة ويطفو فوق ذلك الواسع الرائع الواهب السالب المزاجي الجليل النبيل البرّاق.. يستطيع أن يمشي فوق زبد الموج على قدم واحدة. أن يغوص إلى الأعماق ويمضي. أن يتلاشى قبل الأوان. أن يترك المرأة تغيب مثل فراشة حطت على كتف الذاكرة وطارت. لكنه يخبئ رأسه بين منكبيه شيئاً فشيئاً، فيبدو مثل غول طيب حنون، ما إن يرى القضبان حتى تلمع عيناه الخبيثتان تحت جبينه العالي، ويغرق في مغطس الذكريات منتظراً غياب الضوء كطفل يتيم ينتظر عودة والديه أمام بوابة الدار..

ويغيب الضوء.. تصبح الشمس فراشة من دخان ونار. تفرد جناحيها على حدود البحر. تقفز العتمة فجأة من السماء وتجلس فوق الموج، وتتراقص على صفحة الماء الدافئ أضواء مصابيح المراكب البعيدة الباردة.. تخرج المرأة من بقايا صدرها علبة تبغ خشبية عتيقة. تلف سيجارة. تشعلها بعود ثقاب وتقدمها للرجل بصمت..

كم مرةٍ أخرجت تلك العلبة العتيقة المرصعة بالأصداف، ولفت سيجارة وأشعلتها. كم مرة قدمتها للرجل كي يتنفس ويتكلم ويلتفت إلى الخلف.! كان يستطيع أن يلتفت إليها. يستطيع، إن أراد أن يرفض. أن يعتذر بلمسة إصبع. بإشارة طفيفة واحدة من حاجبه.. كان يستطيع أن يزجرها. أن يقطّب حاجبيه ويقول لها: «**بطّلت التدخين**». لكنه أدار وجهه بعيداً، وراح يتهجى تلك الأحرف التي حفرتها المسامير والأظافر فوق ذلك الجدار المظلم، ذي النوافذ العالية والأسلاك الشائكة. يتذكر الألم ويرى القيود وأبواب الحديد وبصمات الدم وظلال الرجال التي تحولت إلى بقع زيت داكنة في ساحة الموت..

يأخذ السيجارة من يدها دون أن يلتفت. يأخذ أصابعها مع السيجارة، فترتبك كالعادة وعندما يشدها إليه، تهمس بلطف وهي تمسك بيده:

- «**انتظر حتى يغيب الضوء..**»

ولم يكن من ضوء سوى تلك الأضواء الخافتة.. أضواء السفن البعيدة الراسية هناك، وأضواء القوارب المرتعشة التي بدأت تلملم في شباك الصيد نجوماً متناثرة طفت على صفحة الماء. كان يستطيع أن يسألها.. أن يسترد أصابعه الخمسة من لحاء يدها ويسألها، ولكنه اكتفى بالتساؤل:

«عن أي ضوء تتحدث هذه الغريبة القريبة من الشطّ؟ وهل يستطيع أحد أن يطفئ تلك الأضواء البعيدة؟»

«وما كانت غريبة عن الجرح. وما كانت قريبة من الماء المالح.. كانت تجلس قرب نافذة في الذاكرة، عارية بين الأضلاع، تمشط شعرها بالسلاميات أمام مرآة الليل، ثم تطلب مني أن أطفئ الضوء، كي نمارس الحب في العتمة..

ولم تكن الذاكرة خريفاً أعرج يدرج بين عكازين. لم تكن كرسياً مقلوباً في حديقة خضراء، أو سلماً مكسوراً بجوار سور.. بل كانت موجاً يداعب الصخور بلطف وشمساً تخبز رغيف الرمل على جمرة السماء..»

كان يستطيع أن يمشي حافياً فوق الرغيف، وحيداً صامتاً كالشمع، كورقة

يابسة صادرتها الريح. ترافقه الأيام القديمة وتلحق به آثار الأصابع مثل قافلة من الفئران فوق طرحة من طحين. ولم يكن عابراً كجثة يحملها الموج، أو مقيماً كعظمة تحت التراب، بل مجرد رجل كهل متهالك فقد حلمه واتكأ بظهره مصادفة على ظهر تلك المرأة المتداعية العجفاء. وكانت المرأة بدورها مجرد أنوثة مجففة لا تعلم أنها تتكئ على كتف ذكورة عرجاء..

أصبحت عيناه بلا أهداب. تساقطت أهدابه على الطرقات، وبريق عينيه سال رغماً عنه وسقط في العتمة الموحشة. توقف عن العمر منذ عمر طويل، وما زال يمشي ويقفز محدقاً بين قدميه المتنافرتين، باحثاً عن الذكريات الرديئة والجميلة، الذكريات التي غرقت جميعها في التراب وأصبحت مقدمة طويلة جداً لنهاية سريعة بائسة.. الذكريات التي أصبحت الأجساد المرتبكة أكفاناً لها..

كما لو أنها طيف امرأة، خرجت من شظايا المرايا، كي تتكئ على ظهره.. بقايا جسد من تعب وعتب وانتظار. بقايا كومة من الرغبات المستهلكة والمؤجلة والأحلام الذابلة.. بقايا شمع ونبيذ وعطور ومساحيق وأساور.. حطام قلق شبق، وبضع رسائل وصور وذكريات.. كانت امرأة كاملة، مكورة بيضاء، لها شعر طويل وكحلة مخاتلة، تجبر الرجل على الاعتراف بأنوثة الكون..

- « كنت متأكداً أنها خرجتْ من ذلك الفندق الرخيص، في شارع ٢٩ أيار، قرب ساحة السبع بحرات.. توقفت فوق ذلك الرصيف المريب، تحت أحد تلك القناديل النحاسية الشاحبة، تمسك حقيبة يدها السوداء بقبضتين صلدتين.. كانت متخفية بالليل والقماش الأسود. يحرسها السيد /المُحرم/ «القواد» الذي طلب مني ٥٠٠ ل.س، وزجاجة ويسكي، لقاء ليلة كاملة.. وكان هذا المبلغ في تلك الأيام ثروة مشبوهة، لا يحصل عليها إلا وزير أو جنرال كبير..»

ترفض الاعتراف بأنها التقطته من الشارع ورافقته إلى «بيتها».. من حقها طبعاً أن ترفض. من حقها أن تكون شريفة ونظيفة ككل النساء.. كانت تعرفه منذ

زمن بعيد. تعرف نزواته وأحلامه الغامضة وإفرازاته وخلاياه. تعرف حسناته ومزاياه وتعرف خطاياه وبغاياه.. وكان متأكداً أنه لم يرها من قبل. لم يحدث قط أن أقام علاقة مشبوهة مع عاهرة ذات نقاب..

ما يعرفه، أنهما استقلا واحدة من تلك الحافلات الصغيرة المشبوهة التي يقودها قواد آخر، علمته المهنة أن يغرق خلف المقود وينظر أمامه، دون أن يلتفت إلى ما يحدث في المقعد الخلفي.. كانت الحافلة بلا مرايا وكانت المرأة منقبة..

- **« كذب. كذب.. لم أكن متخفية بالليل ولا بالقماش. لم ألبس نقاباً في حياتي. كنت امرأة سافر مسالمة، غرّة، أغواها كهل شبق، استغل حاجتها وإعجابها به، فقبلت أن تلبس محبساً رخيصاً وتستأجر «كندرة» وطرحة عرس طويلة بيضاء، وتمضي معه حيث يشاء.. كانت الزغاريد تملأ الحي. والغبار يحمل ذيل ثوبي الفسفوري عبر الزقاق الترابي الطويل. وكان لحمي سافراً كالعاج.. كنت ملكة مكللة بالبياض الفتي. وكان تاجي مستعاراً وحذائي مستعاراً، وأساوري وأقراطي ومجوهراتي كلها خلّبية. حتى تسريحة شعري كانت بالدين. وكانت الدموع تسيل من عينيّ على وجنتيّ، وقلبي يضحك خلسة كي لا يتوقف عن الخفقان. وكان هو إلى جواري، يبتسم ويلتصق بي. يشبك ذراعه اليمنى بذراعي ويقودني إلى مكان مجهول..»**

- « لم أكن يوماً من الأيام كهلاً، ولم تكن هي مراهقة أو غرّة.. كانت مُلكاً للجميع ولم تكن ملك أحد، وكانت صنواً للجميع ولم تكن صنو أحد، وكانت تحب الجميع ولم يكن يبالي بها أحد.. أما عن الغواية فهي التي علمت الجميع أسرار الفتنة والغواية، وستعلم أبناءنا من بعدنا جميع فنون الحب. لكن الحب الذي لا يكتمل، يقود عادة إلى الكراهية والعداوة..

- كانت هي التي تشبك ذراعها اليمنى بذراعي وتقودني إلى المجهول.

وكان شعرها كومة من رؤوس الخفافيش التي ذبحت لتوها على مخدة البكاء. وكانت الدماء تسيل من عينيها وهي تمشي إلى جواري باكية ضاحكة مطرقة متباهية..»

- « كنت أملك شعراً مشتعلاً ونهدين طليعيين متقدمين جداً على تفكيري في تلك الأيام. كنت أنتظره منذ زمن بعيد، وكان هو أيضاً ينتظرني.. والتقينا مصادفة في مسرح مغلق تتقمص فيه الأجساد أرواح الشخصيات أمام المشاهدين.. كان ذلك منذ جيل وأكثر.. كان ممثلاً معروفاً، ومهنته تقمص الأرواح، وكان يقف وحيداً فوق خشبة المسرح، تلك القطعة السوداء من الليل، كما كان يحلو له أن يصفها، التي تزينها القناديل، وتتراقص على جدرانها الأشباح.. كان وقتها يتقمص روح «لوركا»، ويمد يده للضوء الباهر في تلك النافذة المرتفعة.. كان رجلاً جميلاً، وكنت قد تخطيتُ سن المراهقة بنجاح كبير، وأصبحت ناضجة للخطيئة، مثيرة للرغبات. وعندما التقينا، طلب مني أن أرافقه إلى سرير الشوك، فوافقت. كان يكره الذهب والفضة، ورضيت أن يكون خاتمي وأساوري من التنك المزخرف وتاجي ومجوهراتي من الحجارة الكاذبة.. وضع الخاتم في إصبعي. ارتديت فستان العرس المستعار. شبّك ذراعه بذراعي ومضينا إلى هناك مشياً على الأقدام، يرافقنا الغبار والبالونات الملونة والزغاريد الحمقاء والصمت المريب..»

قهقه كالملتاث ثم توقف فجأة عندما هاجمته الريبة:

- « لم أكن ممثلاً، ولم نلتقِ فوق الخشبة، إلا إذا كانت تعتبر الحياة خشبة كبيرة، كما يقول وليم شكسبير.. لو كان شكسبير يعرف السينما، لاعتبر الحياة سينما.. شريط طويل من الصور، تلتقطها العين وتخزنها الذاكرة في علبة الروح السوداء المخاتلة..

- رافقتها إلى حي «الكيكية» وهو من الأحياء الفقيرة العشوائية التي تقع

على مرتفع بائس من الأرض، يفتح رجليه كثيراً كي يطوق خصر المدينة الملوث بالسخام.. أكواخ عالية تسبح في الرمل والغبار والدخان، وأكواخ واطئة تسجد في الوحل.. جبال كالجماجم، وتلال متلاصقة مثل قلادة من الجرار الفخارية المعلقة على صدر السماء..

- ما لن أنساه أبداً أنني كنت في ثياب النوم.. حافياً. مقيد اليدين.. مخفوراً بالحراس المسلحين، داخل سيارة «زيل» عسكرية، تقلني بصمت من حي ركن الدين إلى مكان مجهول في المدينة.. كنت أسترق النظر من خلال كوة سيارة السجن المتحرك.. كانت البنايات القرميدية العالية مطفأة كأعقاب السجائر في صحن الرماد، والأشجار التي تعبت من شد شعرها بيديها، تصطف في طوابير طويلة أمام مقصلة الخريف الذهبية.. كنت أرى البيوت مائلة والشوارع واقفة والساحات لا تدور. وحدها الطيور كانت تزغرد في العرس قبل الغروب.. تفرح نيابة عنا وتنثر فوق رؤوسنا ما جمعته طوال النهار من أرز وسكر وقش. تتقمص مشاعرنا الطازجة. تحمل أحلامنا. تحرك السماء الرصاصية بأجنحتها الصغيرة العابرة.. تسخر من وجوم الهواء الفاسد حولنا.. تزرق علينا. وتخط على الصفحة المسائية أسماءنا الناقصة، ثم تسقط أحرفاً من التوت الشامي، فوق شراشفنا البيضاء..

- دخلنا في متاهة الأزقة المتكاتفة، وفي النهاية توقفنا أمام باب كبير حديدي رمادي صدئ.. كانت جميع الأبواب الخارجية متشابهة: حديدية رمادية مبقعة بالصدأ ولها ثقب صغير.. وكان أهل الحي يعرفون ذلك الباب المحروس، الذي لم يكن يستقبل إلا رجالاً بربطات عنق أنيقة وهويات سرية ومسدسات تحت الحزام.. الجميع كانوا يتجاهلون ذلك الباب عن قصد، يمرون بجواره ويغضون الطرف، وفي أفضل الحالات يبسملون ويتعوّذون، ويحوقلون، ويتمتمون بكلام الله ثم يمضون في طريقهم مسرعين خائفين..

- ما إن نزلتُ على ذلك السلّم الحديدي في مؤخرة سيارة الزيل، حتى تجمع حولي رجال الشرطة العسكرية، وبدأ التهليل والتصفيق.. التصفيق ليس لي، بل على وجهي ورأسي ورقبتي.. « يا إخونجي يا عميل»..

- شارك الجميع بالتصفيق والركل والضرب بالسياط دون رحمة، على رقبتي ورأسي وخاصرتيّ.. كان أي معتقل بالنسبة لهم هو إخونجي عميل، حتى لو كان كافراً بجميع الديانات..

- قيدتني بذيل فستانها، وطلبتْ مني الدخول. دعتني إلى فنجان قهوة. مجرد فنجان من القهوة ثم أعود إلى بيتي.. دفعني القواد بقسوة فدخلت. كنت يومها بساقين كاملتين، فتوازنت، ووقفت هناك عند العتبة.. كنت أخاف من القهوة والعتمة وأبواب الحديد الصدئة المثقوبة. قلت: إن شئت نفعلها، في أي مكان آخر.. خذيني إلى زريبة أغنام.. إلى فراش محشو بالتبن.. إلى خربة مهجورة أو فندق رخيص، أو مغارة زانية.. خذيني إلى بريّة بلا أخلاق، أو غابة محافظة، إلى غرفة بلا كرامة في حي عشوائي أو مكبّ للنفايات.. دعينا نفعلها في ملحق أو شقة على العظم أو مقبرة موحشة.. لكنها قادتني إلى ذلك القفص الذهبي في ذلك القبو المظلم، وطلبت مني النزول على ذلك الدرج الرخامي.. عشرون درجة تحت الأرض.. كدت أهرب من المكان، لكنها أمسكت بيدي وأشارت إلى «القواد».. كان يقف خلفي متحفزاً منفرج الساقين يحمل بيده كبلاً رباعياً مجدولاً، ويحيط به عدد لا يحصى من القرود الصغيرة وكلاب الصيد والسعادين.. نزلت أمامي وهي تجرني بذيل فستانها الفسفوري، ونزلت خلفها بإرادتي، وأنا أدوس على عشرين درجة من شجاعتي وعنفواني وكرامتي.. عشرون درجة رخامية تقود المرء إلى الحضيض.»

- **« كان فقيراً وقبلت فقره. وكان مشاغباً وقبلت شغبه. وكان مزاجياً وقبِلتْ مزاجه. وكان صعباً وعنيداً ومتحجراً وقاسياً ومعارضاً ورافضاً**

ومرفوضاً وقلقاً.. لا يرضيه شيء، ولا يرضى عنه أحد. وكان فوق ذلك ملحداً وقبلت به حبيباً وشريك حياة.. كنت صغيرة وفرشت له الأرض بطرحة عرسي. وعندما أحضرت له الطائر الذي وضعه في قفص، غطى عينيه براحتيه، وخطا خلفي بصمت باطني..

- لم يكن قد نطق بعد. وكنت أنا أيضاً بلا لسان. كنت أنتظر المبادرة منه، لكنه لم يقل كلمة واحدة. كان كمن سقط فجأة في بركة ماء باردة، وحلت محله الفقاعات..»



-٢-
ممارسة الحب مع وردة ذابلة

«نعم، صحيح.. كانت الأرض مفروشة بغلالة شفافة من العفن الفسفوري. عفن نسجته الرطوبة والكائنات الدقيقة والنسيان.. وكان الزمان قططاً سوداء وأحداقاً ترقص فيها النار.. لم يكن المكان قفصاً ذهبياً بالطبع، بل مجرد قبو صغير مظلم، محكم الإغلاق، بأربعة جدران وأربع زوايا، تحرسها ثلاث قطط متوحشة صامتة:

- في الزاوية الأولى قطة سوداء وعينان من كهرمان..
- في الزاوية الثانية قطة سوداء وعينان من كهرمان..
- في الزاوية الثالثة قطة سوداء وعينان من كهرمان...

- وفي الزاوية الرابعة سرير مقعر قذر أصفر، تزينه غلالة مترهلة من خيوط العنكبوت، سقطت من السقف، وخيمت على قفص لطائر صغير. طائر ملون، عُلّق فوق السرير، ما إن سمع صوت القفل حتى رفرف بجناحيه وزقزق مُرَحِّباً بالضوء.. كان صوته هو الدليل الوحيد على وجود حياة في هذا القبر. كنت أعرف صوته وأذكر لون عينيه وجناحيه ومنقاره الصغير. لقد صنعت له قفصاً من الغيم وأطلقت عليه اسم /سنفور/. ولكنني لم أفهم في البداية، ما الذي أتى به إلى هنا؟!

- كان المكان أبكمَ، بلا نوافذ. يصلح للاغتصاب فقط.. وكان الضوء خائفاً، ومروحة السقف تدور ببطء. ورائحة العرق والعفن والبول، حبيسة الجدران..

شعرها الأسود الطويل المسبل يثير الأصابع ويحمي عنقها الشمعي الدقيق، وهو ينسدل ويميل ويلتف فوق قميص أصفر، ذي أزرار كبيرة سوداء, بدت مندهشة من وجودي.. كان ذلك في الحقيقة لقاءَنا الافتراضي الأول، وربما لهذا، لم أدارِ التحديق في تلك الأزرار الزجاجية التي تصطف فوق بعضها من الخصر إلى النحر مثل رتل من عيون الوعول الواجمة، مشكلة إشارة استفهام منتفخة عند الصدر، تخبئ خلف القميص نهداً فتياً مكوراً، راح ينطح القماش ويكاد يطل برأسه..

- ولم تدارِ هي أيضاً التحديق في "شخصيتي"..

خبيثاً كنت، ومنطوياً، ومرسوماً بشكل عشوائي.. أرتدي العتمة كالغول، وكل عين من عينيّ كانت تنظر إلى جهة معاكسة، بينما جلست هي في الضوء، مثل مرآة عارية. تتأملني، دون حرج، كما لو أنها تتأمل كفيفاً.. وأذكر أنها قالت لي:

"كان يجب أن نتبادل الأماكن". سألتها: "ولماذا !؟" قالت: **"لأن مكاني هو العتمة"**.. فقلت: **"ومكاني !؟". قالت: "مكانك الضوء طبعاً.. أنت البطل"**.. وتضيف واثقة عارفة، وقد سيطرت عليها الأنوثة تماماً:

- **"العتمة أصلاً أنثى، والضوء ذكر.. "**

وكانت أنثى وأكثر.. وكنت على ما يبدو وعلاً مناسباً..

المسافة بيننا مجرد لوح زجاجي مطلي برفير مجهول باهت جمده البرد.. أنظر إليها خلسة فأراها، حيناً كما لو أنها زهرة ندية مرشوشة بالماء غرست في إناء من الصلصال فوق حافة النافذة.. خلفها الأزرق السماوي، والجدار أمامها حاجز رقيق شفيف مثل بلورة قنديل.. أظافرها شوك يخمش الندى. وفمها عضو كافر.. عيناها قطيع من بقر الوحش.. كحلة بلا كحل، وألحاظ تطير بلا أجنحة. حذاء من قشور الكستناء، وجناح فراشة ينحسر عن ساقين من موز ناضج، وأساور خرز تعكس في أقواسها ألوان الطيف، وتضيف إليها ألواناً جديدة هي مزيج من الدم والحليب.. ترتدي بتلاتها الخمرية على لحم عار، وتخبئ براعمها تحت إبطيها في عشين صغيرين..

وحيناً آخر كنت أراها مثل قطعة خشب غريقة، لفظها مركب أمير فينيقي قديم، جابت البحار كلها منذ السنين، وتراقصت فوق موج البحور حتى داخت السماء وانحنت عليها.. خشبة عاشرت الملح والرطوبة والشمس ثم غاصت إلى القاع، وتحولت إلى محارة نخرتها فقاعات الهواء والرمل ونطف الأسماك والبيوض الغامضة. زيّن جيدها المرجان واللؤلؤ، وتدلت من أذنيها قناديل البحر والإشنيات، وراحت تتحرك مع التيار، كلما التفتت أو تنهدت أو صمتت.. ثم جاء المد العظيم فانفتحت المحارة وتحولت إلى يابسة جامحة، سرعان ما روّضها الموج وصارت وطناً..

ولم أرَ شيئا غير ذلك، لا شيء سوى صباها في ذلك الركن المكتظ بالورود، العابق بالدخان ورائحة الشمع المحترق والنبيذ المعتق والهمس.. لم أكن في حضرتها سيداً، حزيناً أو سعيداً أو مرتبكاً، ولم تكن مشاعري قوية أو باهتة، بل كانت صادقة كشجرة ميتة، كثيفة ونشيطة، كجيش مهزوم من الأوراق الصفراء في حدائقها.. كانت تبتسم وتسأل دون حرج، وكنت أحاول أن أبتسم وأجيب، مثيراً الأشواك التي إن خرجت، جرحت حنجرتي، وخدشت حياءَ الناس وكرامتهم، وإن بقيت، نخرت كالدودة في لحم الروح.. حدثتني عن البهجة ومواجهة الحياة، فحدثتها عن الحزن والموت. حدثتني عن الحب والجنس والولادة فحدثتها عن الكراهية والعقم وضرورة خروجنا أيضاً من الأرحام بواقٍ ذكري، وعادت لتحدثني عن الأشجار والأزهار والسفر، فعدت لأحدثها عن الصحراء والحصى والدروب المغلقة، فعادت لتحدثني عن البذور وحبوب الطلع والأجيال القادمة، فعدت لأحدثها عن أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية التي تتسابق مذعورة عمياء، تحت عدسة المجهر، لترتطم أخيراً ببويضة الحياة.. وسألتني أخيراً دون حرج:

- **أليست لديك ذاكرة أخرى!؟**

حدقت فيها. ولم أبتسم. كانت عيناها واسعتين، ولسوء حظي خضراوين كبحيرة في غابة صنوبر شحّ ماؤها. وكان الحديث يدور عن الحنين وليس عن

الذاكرة. ولم يكن لدي سوى الألم والمرارة والخذلان. وماذا سيبقى في ذاكرة المحارب، غير المرارة والألم والقروح.

قلت: إن نقطة قذرة واحدة تلوث خابية مفعمة بالماء الصافي. هنا تكمن قوة القبح والأوساخ. قالت: والنظافة!؟ قلت: **النظافة** ليست سوى نشر للأوساخ على أكبر مساحة ممكنة.. وما نفع نظافة البيت إذا كانت المدينة بحاجة إلى تنظيف!؟ وماذا تستطيع أن تفعل قطرة ماء صافية في بحيرة آسنة بلا حراك!؟ حتى الضفادع تربض على حافتها الآسنة، منتظرة بعينين جاحظتين وبطن منفوخ، أن تبتلعها أفعى، أو بومة جائعة..

- ولماذا لا أكون بحيرة وليس ضفدعاً!؟

تستطيعين، إن أردت، لكن لا تحلمي بعد ذلك، أن تنجبي غير الضفادع..

ولم تكن صغيرة كي تندهش أو تبكي، ولم تكن كبيرة بما يكفي، لتضحك ساخرة مني. ربما كانت مرتبكة أو عاشقة. وقلت أخيراً وأنا أحك ذقني بخنصري دون سبب:

- الناس يحلو لهم أن يروا الأوهام الجميلة.. يغلقون نوافذ بيوتهم على الفضيحة إن وقعت.. يبكون في الليل ويبتسمون في النهار وهم يرددون: "كل شيء على ما يرام.. الحمد لله رب العالمين"..

- ومع ذلك "كن جميلا ترَ الوجود جميلاً"..

- هو هو .. كلمات.. وهل يراني الوجود جميلاً كي أراه!؟

- كنت أظن أنك إنسان متفائل وسعيد.!

- ولماذا تظنين ذلك!؟

- لأنك فنان موهوب، ومحبوب من الجميع..

- الجميع.!؟

ابتسمتُ فابتسمتْ لي بدورها. كانت ابتسامتي شبيهة بالسخرية، وكانت ابتسامتها سذاجة خالصة، ورأيت أسنانها المفروكة بالثلج، فشعرت بالبرد..

إنها باقة للروائح. متحف للأجساد والأرواح.. سهل فسيح.. سرب من الفراشات النادرة في معرض أزياء غجري.. مثيرة للمشاعر دون شعور، مثيرة للأسئلة.. الحياة أمامها، وكذلك الذاكرة. تطوي صفحة عمري إلى نصفين، ما كان منه، وما بقي فيه، حتى ينطفئ الضوء تماماً ويعود الممثل إلى بيته الترابي الصغير..

وكيف أشرح لها بأنني لست لوركا، ولا أحفظ إلا القليل من أشعاره.. كيف أشرح أنني مجرد ممثل شاءت الأقدار أن يقف فوق قطعة خشب تضيئها بقعة ضوء وهميّة. يتقمص أرواح شخصيات تراجيدية وكوميدية.. شخصيات إغريقية غابرة، وشخصيات من عصر النهضة والأنوار.. إنكليزية وعربية وفرنسية وروسية وإسبانية. رأسمالية واشتراكية، وشخصيات معاصرة، علمانية ومتدينة، عبثية وأيديولوجية ورجعية وتقدمية وراديكالية وبراغماتية ومحافظة.. شخصيات حالمة، تبحث حيناً عن الخبز وأكثر الأحيان عن الحرية والعدل والكرامة الإنسانية..

بدت كما لو أنها لا تحتمل ما أقول، أو أنها كانت ترغب في سماع شيء آخر.. لم يكن الأمر سهلاً عليها. ولم يكن سهلاً عليّ أيضاً، أن أجعلها تفصل بيني وبين لوركا. مرّ وقت طويل وتجارب كثيرة ومريرة، حتى اكتشفنا اللعبة، وتمكنّا من تحديد الفارق بين الشخص والشخصية، بين الخشبة والوطن، بين المسرح والحياة..

الناس جميعاً يا آنستي، مجرد خيالات تأتي من المجهول لتدب على خشبة معلومة، وتتسلق جدرانها.. خيالات تفعل.. تتناسل، تشهق وتزفر وتحلم وتتألم وتتعلم وتصيب وتخطئ وتجتهد وتقوى وتستقوي وتتقي وتحب وتمكر وتكره وتأخذ وتعطي وتضحي وتتوهم وتتهم وتضحك وتنتحب وتبتئس وتتحسر وتنتصر وتحسد وتخون وتتوق وتزني وتبني وتخرّب وتتمنى وتستمني وتخاف وتقتل وتبوح وتربح وتخسر وتتجمع وتجمع وتطرح وتخطط وتغش وتتواطأ وتتوحش وتعلو وتهبط وتُحبط وتمتلك وتغني وتصمت وتستوحش وتنجح وتفشل وتكتئب وتفرح وتجمح وتتوب وتشقى وتقلق وتتمرد وتنكسر وتسخر وتسجد وتستجدي

وتطيع وترجو وتكفر وترفض وترضى وتتداعى وتغامر وتقامر وتتردد وتحسب وتحتسب وتغفر وتتألق وتأمل وتتأمل وتنتقم وتسقط وتنهض وتتعذب، وترفض أن تستسلم، وتنهض ثانية وتثور، وتنتصر أخيراً وتهزم من جديد.. ثم تختفي مع اختفاء الضوء عن الخشبة، تاركة آثار أقدامها فوق ذاكرة سوداء..

كان الحديث يدور عن الحنين، وليس عن الذاكرة.. وهل تستطيع تلك الوردة المنقطة بالماء، أن تعيد ترميم مشهد لم تره ولم تعشه قط!؟ وهل تصدق أنه يمكن أن يعاش.!؟ ولكنها أتت إلى هذا المكان المعتم المغلق.. وهو مكان يثير البوح ولا يعرف الكذب بل الإيهام.. كان يجب على كل منا أن يصدق الآخر لمدة ساعة على الأقل.. وتواطأنا معاً.. ثوري «سوداوي» يقف على الخشبة بمواجهة حالمة «زهراوية» مشرقة تجلس في صالة معتمة.. مواطن محترف بمواجهة وطن من طين»..

- قيدتني جيداً بطرحة العرس ووضعتْ عصابة سوداء على عيني وقادتني بنعومة إلى السرير.. كنت أتعرف على المكان بحاستي الشم والسمع فقط.. أشم رائحتها وأسمع تنفسها وحفيف ثيابها. خلعت حذاءها وجوربيها، وتمكنت-بصعوبة- أن أرى من خلال الشق الفاصل بين العصابة والأنف، قدميها الصغيرتين وطلاء أظافرها الأحمر. كانت تقف أمامي، ودون أن أشعر، رفعت رأسي ببطء كي أرى ساقيها العاريتين.. وما إن وصلت إلى ما فوق الركبتين، حتى نزلت يد ثقيلة على رأسي ودفعته نحو الأسفل.. لم تكن تلك اليد يدها.. طلبت مني أن أستدير إلى السرير وأنحني. وبدأ التحقيق.. احتوتني.. غرزت أظافرها في رقبتي. تسللت بلطف إلى صدري، وراحت تتجول تحت القميص. تفك الأزرار. تتلمس الشعر. تقرص الحلمتين. تلحس الرقبة. تستنشق رائحة الإبطين.. لفح زفيرها الشبق جلدي، وكادت شفتاها تعضّان أذني.. أدارتني فجأة نحوها فاستدرت.. دست يدها بين فخذي واحتوت ذكورتي الذابلة بأصابعها المتشنجة، وراحت تضغط

خصيتيّ بلطف، ولكن بقوة لا تقاوم، فانتفضت رجولتي رغماً عني، وصرخت.. »

كنا نجلس في مقهى يضج بالأصوات ويعبق برائحة القهوة والنبيذ والتنباك.. كانت هي مسلحة بقلم وردي، وضعته فوق رزمة من الأوراق.. وكان الاعتراف أمام صحفية شابة يشبه، إلى حد كبير، الاعترافَ أمام محقق عجوز، لم يكن يحمل ورقة ولا قلماً، في قبو صامت يفوح برائحة العرق والعفن والبول، يضيئه برتقال حزين ويتعثر فيه الكلام، ويخرج من الفم ممزوجاً بالدم والأسنان.. هكذا رأيتها للوهلة الأولى، ولم تكن رؤيتي صحيحة أبداً. فما كان، ليس الآن، وهي لا تشبه ذلك المحقق العجوز، الذي سألني بضع أسئلة دون أن ينظر إليّ ولو مرة واحدة..

كانت تنظر إليّ ثم تسألني. وكنت أجيب، فتسجل أقوالي على رزمة البياض تحت ضوء باهر.. تنظر إليّ مندهشة لمدة تطول حيناً، حتى تختلط بالريبة، وتقصر أحياناً حتى تخالطها الشفقة.. تصمت وتتردد وتشهق وتضحك، ثم تفتح عينيها دهشة. تضم يديها حسرة. تعضّ القلم بأسنانها، ثم تصمت من جديد.. وفجأة سألتني عن المرأة..

- **كيف كنتم تتدبرون أموركم بلا امرأة.؟ هل يستطيع الرجل أن يعيش من دونها داخل السجن؟؟**

صمتُّ طويلاً، ووجدت نفسي أحدق في أخضر عينيها المبللتين وأقول فجأة :

- يستطيع الرجل أن يمارس الحب مع وردة إذا أراد..

فتحت شفتيها دون حذر. تعثرت أصابعها بالهواء، وتساءلت:

- **مع وردة!!؟**

- **" لست أدري لماذا كان يبدو لي قريباً، عندما يطبق عينيه الواسعتين، كنت أتمكن من الغوص إلى أعماقه، وأنتهز الفرصة كي أتأمل أهدابه**

الطويلة ووجهه الأنيس القاسي الذي يجلس عنوة فوق ذقن كثة غزاها الشيب.. لم يكن يشبه لوركا، بل كان مثل وحش في قفص. بلا رقبة تقريباً.. وعندما كان يفتح عينيه ويحدق في وجهي، ليراقب وقع كلماته عليّ، كانتا تبدوان لي مثل تُرسين من البرونز، يصدّان سهام رغبتي ويصدران شعاعاً غامضاً يخترق بشرتي..

- لقد تمكنتُ من استفزازه، فحدثني، كيف مارس الحب مع وردة.. ظننت في البداية أن وردة هو اسم امرأة، وكدت أصرخ في وجهه وأعلن غيرتي، لكن تبين أنها وردة حقيقية، شامية، حمراء اللون، بحجم قبضة الكف الندية، وصلتهم في إحدى الزيارات مع باقة كبيرة متبرجّة من الزنبق والقرنفل والفل.. كان الأهل يرسلون إليهم الورود أيضاً.. حدثني كما لو كان وحيداً. وبلغة حسية شبقة، كيف اشتهى إحدى تلك الوردات، فطلبها من صاحبها، ولم يكتفِ بشمها وتقبيلها، بل مارس معها الحب سراً حتى ذبلت.. ربما كان يريد استثارتي، وربما كان يرغب أن يبدو مثيراً، ولم يكن بحاجة لكل هذا الجهد، لأنني كنت مستثارة أصلاً.. مجرد حضوره أمامي.. عيناه، حركة يديه، ذقنه.. حتى رائحة تبغه كانت تثير مكامن رطوبتي.. لقد عشت وكبرت معه قبل أن ألقاه.. أنامله كونت أنوثتي ولهفته حولتني إلى امرأة.. وأصبح الرجال مجرد ظلال وخيالات مائلة خلف ستائر نافذتي المغلقة...

- قبل أن أراه كنت مجرد طفلة صغيرة، ألهو مع الصبيان في أزقة الحي، وأعود لأنام على مخدة ناعمة، وأدس تحت فراشي خلسة، أسراري الصغيرة الماكرة، التي لم أجرؤ يوماً على البوح بها، حتى لأمي.. أصبحت بعدها ناضجة، مشحونة بالعواطف والرغبات، مثيرة ومثارة ومشتهاة، ولا أملك إلا سراً واحداً، تحت اللحاف، هو صورة هذا الرجل الكهل الذي كنت أتوسد ذراعه الخشنة طوال الليل، وأجوب الشوارع في النهار بحثاً عنه..

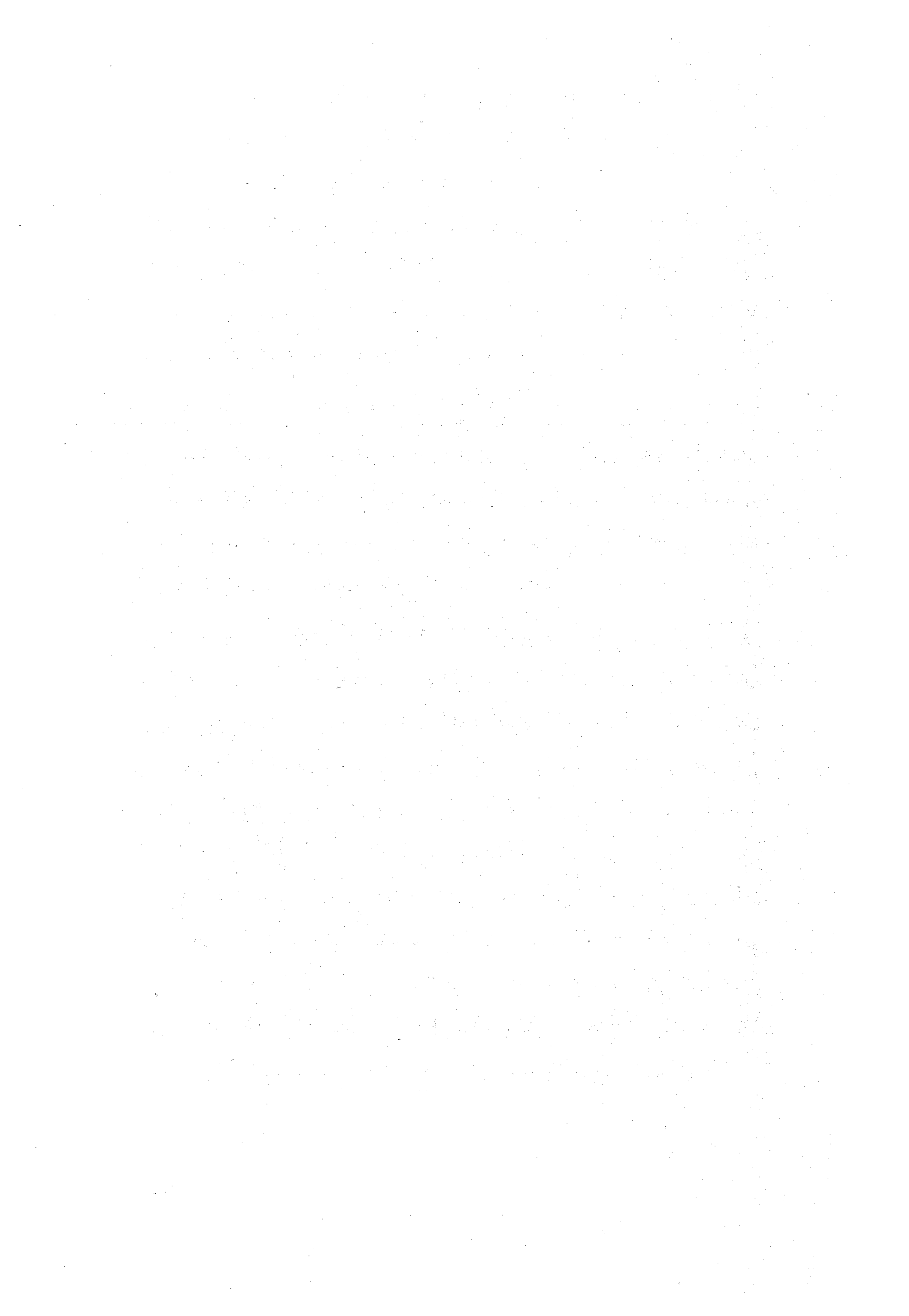
- «كان الصمت طافحا بالكلام. وكان الكلام حجراً يرسو في قاع القفص الصدري، فوق الحجاب الحاجز تماماً، كان الكلام مُقعداً، وما زال. وكنت ملاحقاً. حريتي كانت تطاردني..

- وكنت أريد أن أبدأ الحديث ولكن جرذاناً لها أنياب، ما إن خطوت في الغرفة حتى لحقت بي، ترافقها كتائب من الفئران الرمادية الصغيرة التي انتشرت بسرعة على الأرض الفسفورية العارية وطوقتني، غير مكترثة بقطط الزوايا السوداء تلك وبريق أحداقها الكهرمانية المرعبة..

كنت مقيد اليدين بذيل فستانها الأبيض، واختلط الأمر عليّ..»

- **« لم يكن يحبني. هذه هي القضية. يدعي أنه كائن وديع، لكنه في الواقع شخص متطرف متوحّد جلف بلا مشاعر أو أي حس آدمي. هكذا هو دائماً، ما إن يجد نفسه أمام مشهد فرحٍ أو حزن حتى يتحول إلى مراقب حيادي، غير معني بما يدور حوله..**

- **لو كنت أعلم أن الحياة سافلة إلى هذه الدرجة لما احتفيت بها كل هذا الاحتفاء.. أيام المراهقة الأولى كنت أخاف من الحياة.. كان الخوف ينبع من جسدي.. لم أكن أعرف كيف أتعامل معه وماذا أفعل به.. شيء ما بيولوجي، خارج عن إرادتي، كان ينضج وينبض في داخلي، يشبه الاشتياق إلى المجهول. جنين غامض كان يخفق تحت الصدر مثل الدّمل، ثم يتحول فجأة إلى برتقالتين كبيرتين.. ألم حاد في البطن.. دوار غامض وقطرات من عصير الورد تلوث أصابعي. ولم تكن حتى أمي، تعلم أو تشعر بشعوري: «أصبحتِ صبية». كانت تقول. «يحدث ذلك لكل النساء. ستعتادين».. وبدأت تخاف عليّ وتمنعني من مرافقة الصبيان. ولكنني لم أستسلم لقدري وأشعر بأنوثتي، إلا عندما تعرفت عليه. ولم يكن صبياً بل كهلا بشاربين كبيرين.»**



-٣-

الجدار الرابع

فجأة وجد نفسه يجلس وحيداً فوق أرض باردة عارية، بدت كما لو أنها مقعرة وسميكة كقشرة قذيفة لم تنفجر، تلمسها بأصابعه العشر، كانت أرضاً ملساء صلبة زلقة، عارية بالفعل، ولكنها ليست من خشب. خيل إليه أنها أرض قبو، أو ملحق منعزل بين السماء والأرض..

بعد دقائق معدودة ستبدأ الحكاية. تتوقف حركة المقاعد في الصالة تماماً ويتوقف الهمس والسعال، ويسود ذلك الصمت المرعب اللذيذ، الذي يسبق العرض عادة، والذي لا يعرف أحد قيمته كما يعرفها الممثل..

كان الضوء في الكواليس مطفأ بالطبع، ولم يبق إلا تلك الإضاءة الزرقاء الباهتة التي تبقى مضاءة قبل أن تسود العتمة تماماً، كي يستدل العاملون والممثلون بواسطتها على طريقهم. وعموماً، لم يكن أحد يعتمد على تلك الإضاءة، بل على الهمس واللمس، أو لنقل على الفراسة والخبرة.. لكنه في تلك الليلة الاستثنائية، التي اختلطت فيها العتمة بالضوء، وتداخلت الأماكن والشخصيات والأزمنة مع بعضها، لم يكن يدري ماذا يجب عليه يفعل.. ولم يكن ذلك بسبب زجاجة الويسكي التي شربها منذ ساعتين تقريباً، بل بسبب خطأ فني في الزمان والمكان والمزاج.. فهو لم يشرب في حياته سوى العرق أو النبيذ في فصل الشتاء البارد.. لكنها قدمت إليه وهي تحمل زجاجة وسكي مخبأة في حقيبة يدها، فهل يردها خائبة!؟

ولأول مرة يجد نفسه مشدوداً في هذا العرض، للعمل بتعاليم أستاذه

الروسي «أنتولي إيفروس» كبير مخرجي مسرح «مالي بروني» في موسكو، وأحد تلاميذ المخرج الشهيد، «فسيفولد ميرخولد»، الذي قتله ستالين في الثلاثينيات، الذي كان يرى أن على الممثلين أن يتقمصوا أرواح شخصياتهم قبل بدء العرض بوقت طويل، ويفضل أن يكون ذلك بعد الاستيقاظ من النوم مباشرة، إذا استطاعوا.. فما إن ينهض الممثل من فراشه حتى يخلع شخصيته الحقيقية ويرتدي الشخصية التي سيؤديها هذه الليلة: يغسل وجهه كما تغسل الشخصية وجهها، يرتدي ثيابه كما ترتدي ثيابها، يفطر مثلها، يخرج من المنزل كما تفعل، يمشي كما تمشي، يحيي الناس كما تحيي، ويتصرف على العموم تماماً كما تتصرف تلك النماذج التي يتخيلها ويعيشها ويجسدها فوق الخشبة.. والأهم من كل ذلك أن يبحث عن تلك النماذج في الحياة، يراقبها، يحلل سلوكها، يحاكيها، ويتعرف على أدق التفاصيل في حياتها كي يتمكن من إعادة إنتاجها بصدق فوق خشبة المسرح..

وكانت الشخصية التي سيؤديها تلك الليلة، لجنرال فاشي كبير اسمه «رودلفو غرازياني»، جزار ليبيا.. كان صغيراً في السن، ومع ذلك، تغطي النياشين والأوسمة والميداليات والشرائط الملونة، صدره وكتفيه وقبعته وياقته وأكمامه وأغطية جيوبه، بعد انتصاره المدوي على أسد الصحراء عمر المختار.

جنرال عصابي من سلالة «نيرون» مصاب بلوثة الأوسمة وعشق البنات العذراوات.. قبل أن يلقى القبض عليه في نهاية الحرب العالمية الثانية، وقبل مقتل زعيمه «بينيتو موسوليني»، كان يزور أحد أندية الضباط في مستعمرة إثيوبيا، مرة واحدة كل أسبوع، فيفردون له جناحاً خاصاً به، يحرسه جيش منتخب من الجند والخدم والمخبرين، الذين ينتظرون تلك الزيارة بفارغ الصبر، رغم أنهم لا يملكون الحق بمعرفة ما يجري في تلك القاعة الداخلية التي تشبهه، إلى حد كبير، غرفة عمليات حربية سرّية تحت الأرض.. كانوا يفتحون على شرفه زجاجة ضخمة تتسع لعشرين لتراً من خمرة «تشياني» الإيطالية ، المصنوعة خصيصا لوزارة الدفاع، ويضعونها على مجسم برج دبابة أو عربة مدفع من البرونز المعرّق

بالفضة، ويقدمونها في كؤوس صنعت من أغلفة القذائف النحاسية، عيار ٢٤٠مم.. وكانت حاشيته لا تخلو أبداً من الفتيات الإفريقيات اللواتي لا تزيد أعمار نهودهن عن سنة واحدة.. كان صارماً جداً مع النساء المتطوعات في الجيش الفاشي، لأنه لم يكن يرى الاتصال برفيقات السلاح مناسباً أبداً لضابط كبير مثله، فالمرأة ما إن تنام مع الرجل حتى تبتلعه تماماً، حتى لو كان جنرالاً...

ولم يكن من السهل على ممثل سوري، وإن كانت تستهويه تعاليم أستاذه الروسي، أن يبحث عن مثل هذه الشخصيات والنماذج، في بلد عربي لم يعرف يوماً الفاشية أو النازية أو غيرها من أنظمة الحكم العسكرية المتطرفة، التي تسمح لضباطها أن يفعلوا ما يتنافى مع قيمهم العسكرية والدينية، وخاصة الأخلاقية.. فهو يعيش في بلد منضبط، تسود فيه القيم الروحية الرفيعة السامية والحس الوطني. بلد يقدس جيشَه العقائدي، الذي وضع أمامه، منذ نشأته، هدفاً واحداً ووحيداً، هو الدفاع عن تراب الوطن واسترجاع أراضيه المحتلة.. ولم يكن من المقبول طبعاً المقارنة بين ضابط فاشي أوروبي منحل أخلاقياً، وضابط عربي مسلم، فطر على مكارم الأخلاق ونذر نفسه للدفاع عن شعبه ووطنه. ولم يكن من المعقول أصلاً، مجرد المقارنة بين نظام تقدمي وطني مقاوم، ونظام شوفيني استعماري متعصب، كان هدفه إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية البائدة.. ورغم قناعته الداخلية بأن المؤسسة العسكرية واحدة في كل زمان ومكان، سواء كانت فاشية أم نازية، تتبنى العقيدة الأسبارطية أو الإنكشارية أو الإشكنازية أو غيرها من عقائد الجيوش والعصابات المعقدة.. غير أنه كان يعلم جيداً أن الاقتراب من حرمة العسكر في بلده، يشبه تماماً الاقتراب من وكر الأفاعي. إنه أمر محفوف بالمخاطرة، تمنعه القوانين، وتعاقب عليه أجهزة الأمن، كل من يحاول التفكير في تلك المجازفة الخطيرة.. ومع هذا، قرر المجازفة، وحاول مقاربة تلك الشخصية المعقدة التي تختبئ خلف أوسمتها..

لكنه فعل كل ذلك بعد فوات الأوان، بعد أن شرب النصف الأول من الزجاجة، ولم يعد لديه أي خيار أمام النصف الثاني.. فليذهب الأستاذ الروسي

إلى الجحيم.. من منا يستطيع أن يتقمص روح «هاملت» أو الملك « لير» أو «أوديب» أو «برناردا ألبا»!؟ حتى هذه الشخصيات كانت بأرواح متعددة.. غير أن الأستاذ الروسي لم يذهب إلى الجحيم، بل الممثل من ذهب إلى هناك طبعاً.. ارتدى بزة العماد المثقلة بالنياشين وسار في الشارع مرفوع الرأس فألقوا القبض عليه قبل أن يصل إلى نادي الضباط القديم..

كان ينتظر نقطة البداية. يستند بظهره إلى جدار أصم خلفه، وينتظر دوره.. وكان المكان يدور.. وخيّل إليه أن ذلك الجدار كان غليظاً جداً، مرتفعاً وسميكاً، ولا شيء خلفه غير صخور الأرض الأزلية.. وسرعان ما اكتشف أنه لم يكن وحيداً، بل كان هناك جداران آخران، يزحفان نحوه ببطء شديد ويتوقفان على مرمى ذراعين من جسده..

ومن الطبيعي أن يكون ثمة جدار رابع غير مرئي، يفصل بينه وبين جيش من الأقواس والرؤوس السوداء الصامتة ذات العيون اللامعة المتربصة به. كان هو أيضاً يتربص بهم كل ليلة، ويراقبهم خلسة دون اهتمام، فهم متفرجون قدموا من البيوت والحارات البعيدة وجلسوا بصمت ينتظرون بدورهم بقعة الضوء التي ما إن تبزغ، حتى يصبح هو مركز اهتمامهم، وينسى وجودهم تماماً.. لكن الجدار الرابع، الوهمي، لم يكن وهمياً هذه المرة.. حلت محله كوة صغيرة مرتفعة.. ومرّ وقت طويل جداً قبل أن يعي بأنه يجلس بين أربعة جدران حقيقية...

ومن الطبيعي أيضاً أن يوحي إليه المكان بأن السقف منحطٌ وعائب وقريب إلى الأرض أكثر مما يجب، حتى إنه ابتلع رأسه بين كتفيه. وخطر له سؤال مبكر وساذج، لم يعرف قيمته للتو: «كيف سيقف في هذا المكان دون أن ينحني»!؟ أي مسرح هذا!؟ أية خشبة!؟ وألقى باللوم، ليس على المخرج، ولا على نفسه، بل على مهندس الديكور الذي جعل السقف حقيراً إلى هذه الدرجة..

جسّ الجدار بكوعيه النازفين فشعر بأنه رطب ولزج مثل لسان كلب مسعور. وما كاد يفكر أن يضرب الجدار بمؤخرة رأسه، حتى سبقه الجدار بإصدار طنين مكتوم لثلاث ضربات مسرحية متلاحقة جعلته يحدق في العتمة بعينيه وأذنيه،

باحثاً عن مصدر الصوت الذي يعرفه جيداً.. واختلط الأمر عليه ثانية وبصعوبة استطاع أن يخمن أقماراً بعيدة تنطفئ، ولغطاً بشرياً مكتوماً راح يتلاشى بالتدريج عندما ساد الظلام..

وشيئاً فشيئاً عمّ الصمت والسكينة.. وبدأ «العرض المسرحي» الذي استمر عشر سنوات دون انقطاع..



- ٤ -

سلالم وجدران

ليس غريباً في هذا المكان المظلم، أن يثير انتباهه حجم أطرافه والطول الغريب لساقيه، وهذه المسافة الكبيرة بينه وبين قدميه الحافيتين، الملتصقتين بالجدار المقابل.. كان مستسلماً لهذا الواقع الغريب الذي ظنه للوهلة الأولى وهماً.. وفجأة، سمع صفيراً متقطعاً لقطار بعيد، وصهيل خيل راكضة تطاردها الريح، وأصوات عجلات معدنية تقترب بإصرار وتعلو بإيقاع متصاعد نحو الذروة، مثيرة خلفها زوبعة من صليل الحديد والسنابك والغبار.. وكاد يصدق، فتكوّر على رأسه محتضناً أذنيه، وانزوى بعيداً عن السكة، لكن الصوت بدأ يتلاشى ويبتعد عن المكان، ويحل محله وجيب طبول وجوقة من الكمنجات الحزينة.. ويستيقظ ضوء أزرق باهت، يوحي ببزوغ الفجر، ويسُلّط عليه، ثم يتحول بشكل ساحر إلى حزمة حادة من اللون الذهبي، تطل من كوة في الجدار الرابع، بدت قريبة جداً للوهلة الأولى ولكن تبين فيما بعد، أنها تحتاج إلى سلم طويل كي يصل إليها..

ما هذا!؟ ما الذي يحدث!؟ ثمة شيء غريب يجري الآن.. كيف يصل إلى تلك الكوة العالية ويطل على الجمهور!؟ لم يكن هذا مقرراً أصلاً.. ومرة أخرى ألقى باللائمة ليس على المخرج، بل على مهندس الديكور الذي جعل الكوة بعيدة إلى هذه الدرجة.. ثمة خلل ما قد حدث بالفعل.! لقد اختلط عليه الأمر تماماً ولم يعد يدرك في أي مسرحية يشارك، وما هو الدور الذي يقوم به.! لكن الوقت كان قد فات، وبدأ العرض، وسُلطت الأضواء على البطل الذي لم

يكن يملك إلا جسداً عارياً يغطيه قميص أبيض ممزق، ملطخ بالدماء، يشبه إلى حد كبير قميص الشاعر الإسباني لوركا الذي ألقى فرانكو القبض عليه، وعندما سألوه: «ماذا نفعل بالشاعر»؟ فقال مباشرة ودون تردد: «اسقوه القهوة» ..

كانت مصممة الملابس والماكياج مشهورة بدقتها وإتقانها، وقد تمكنت بالفعل من إقناع الجمهور، في العروض السابقة، بأن «لوركا» قد ضُرب بقسوة وسُحل على الأرض ولطخت «القهوة» قميصه الأبيض.. ولكن ما فائدة كل ذلك الآن، إذا كان الجدار الرابع يفصل بين الشاعر والجمهور، وأن السبيل الوحيد لظهوره، هو الوصول إلى تلك الكوة اللعينة العالية، التي سطع منها الضوء منذ وقت طويل.!؟ وسمع فجأة من يهمس له في الكواليس:

- ماذا حدث!؟ إنك تنزف..

ثم صرخ من بعيد بصوته الموتور:

- تسلق الجدار..

كان ذلك هو صوت المخرج الذي ترك غرفة المراقبة وهرع إلى الكواليس ليساعد البطل في إنقاذ الموقف.. ولكن كيف يتسلق جداراً غير مرئي!؟ لقد طلب لوركا، قبل موته، أن يتركوا النوافذ مفتوحة، فهل فقد المخرج عقله!؟ إنه الجدار الرابع الوهمي الذي يفصل بينه وبين الناس.. ومع ذلك قبِل التحدي وهمس بدوره:

- احضروا سلماً..

- لا يوجد لدينا سلم.. تسلق الجدار..

لكنه لا يملك إلا سلماً واحداً هو عاموده الفقري.. كان يجب عليه أن يقف، لكنه لم يستطع.. كانت يداه مقيدتين إلى الخلف والدم ينقط من أصابعه، ولم يكن جسده من خشب أو حديد، بل مجرد جسد من عظم وعضلات وآلاف الأمتار من الشرايين والأوردة والأعصاب والإرادة...

صُنع السلم أصلاً كي نعتليه وندوس عليه. إنه ليس سكة حديد أو رتلاً

من العوارض الخشبية، ولا مجموعة من النوافذ المصفوفة فوق بعضها في بناية مرتفعة، بل هو عدد من العتبات التي تقودك إلى السقف أو الشرفة أو النافذة.. قد يكون هابطاً أو صاعداً، مصنوعاً من الخشب أو الحديد أو الحبال.. وقد يكون قصيراً أو طويلاً، عريضاً أو رفيعاً، مائلاً أو عمودياً أو منحرفاً أو متعرجاً، وقد يكون مستقيماً وربما منحنياً.. لكنه لا يمكن أن يكون مركوناً بجانب الجدار، مقيداً منبطحاً.. لقد كُتب على السلم أن يبقى واقفاً هكذا: قدماه راسختان في الأرض ويداه مرفوعتان نحو السماء.. لا يستطيع الجلوس أو الركوع أو النوم، إلا إذا أحيل إلى التقاعد، بسبب الشيخوخة أو الوهن، أو التسوس، أو بسبب مرض عضال، يجعله عاجزاً، لا يستطيع الوقوف على قدميه ويحتاج للمساعدة.. أما إذا لم يعد يجد جداراً واقفاً، كي يتكئ عليه، فسوف يبحث السلّم عندها عن موقد نار أو مستودع للعجزة، يأوي إليه..

إنها السلالم التي ترفع السماء بسواعدها. صنعها الإنسان على شاكلته، وجعلها معراجاً للروح، ترتقي فوقه درجة بعد درجة، ثم تعود إلى الأرض لتجعلها أكثر جمالاً وبهجة..

الوقت يمضي والجمهور ينتظر والعيون تترقب ما الذي سيحدث بعد اشتعال الضوء في الكوة المرتفعة.. كاد المخرج ينهار.. وعندما لم يحدث شيء ضجت الصالة فجأة بالتصفيق.. لقد صفق الناس، في هذا المشهد، ليس للشاعر الذي ضُرب بقسوة وسُحل على الأرض وسالت القهوة منه، بل لذلك الضوء الساطع في الكوة المرتفعة، المقفلة بقضبان حقيقية من الحديد..

- **" يا إلهي!! إنه هو.. إنني أعرفه منذ أن فضَّ الغشاوة عن جسدي وأصبح رَجلي.. لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الهيئة قبل أن ألتقي به أخيراً..**

- **حتى إنه لم يكبر أبداً، بقي نسخة طبق الأصل عن ذلك الذي رأيته على خشبة المسرح وحلمت أن أراه على مر السنين.. هل يمكن أن يتقمص الإنسان ذاته إلى هذه الدرجة!؟ أم إن الكاتب صنعه بهذا**

الإتقان، وجعله المخرج يبدو مقنعاً وصادقاً إلى هذا الحد..!؟"

- جميع العيون مفتوحة لكنها غامضة ساهمة.. كلها تحدق فيك، تتربص بك، وأنت لا تراها.. عينان وحيدتان برقتا في العتمة.. كانتا مثل عيني أرنب فاجأه الضوء فخرجت الدهشة منهما، حزمتين من شعاع فسفوري..

- توقفت بدوري عن الحركة وخرجت عن مسار الدور.. تقدمت خطوتين وحدقت فيها. كنت أراها للمرة الأولى.. كانت تجلس في كل الصفوف، والمسافة بيني وبينها عتمة كبيرة وصمت مطبق. نسيت الكلمات والحركات وخرجت في البداية من الضوء ثم خرجت تماماً من الحالة، وتقدمت خطوتين صغيرتين وسألت الصالة: أهذه أنت!؟

- كنت أعلم أن تنكة الزبالة غير بعيدة عن وجهي. تنكة صدئة كبيرة مملوءة بنفايات حشد هائل من البشر، تجاوز السبعين بشرياً، حُشروا في مهجع كان أيام الاستعمار مخصصاً لستة رؤوس من الخيول العربية الأصيلة، وبضعة جِمال، وأربعة من البغال التركية القبرصية الهجينة ومعلفين طويلين من الخشب السميك.

- كانت هذه النوافذ المستطيلة العالية، منخفضة وواسعة فضيقوها ورفعوها إلى أعلى الجدار كي لا يتمكن أحد من الوصول إليها.. وكانت الفضلات أيضاً لا تستطيع الخروج إلا بإذن من الحارس. وحدها الفئران تملك حق التجول بحرية فوق صدور النائمين. تصدر أصواتاً ناعمة وتتقافز مرحة غير خائفة من الكوابيس والشخير الذي يصدره النائمون..

- مشهد مسرحي جديد، لكن الجدران هذه المرة، كانت حجرية مطلية بالإسمنت، ومجرّحة بأحرف وأرقام وتواريخ حُفرت فوق بعضها، فتحولت إلى طلاسم أو «شيفرة» خاصة، لا يعرف قراءتها إلا من كتبها. كانت الأرض مبطنة بالأرواح، وزواياها تغلي بالفئران، وما إن أصدر حركة أو

صوتاً حاداً حتى تقفز هاربة من الوعاء مثل شلال من الزفت..

- في البداية كنت أتقزز من هذه الوجوه الشيطانية المثلثة والعيون البراقة الصغيرة السوداء وشوارب الشعر الطويلة والذيول الرفيعة المدببة والآذان الكبيرة المستديرة. ولكنني سرعان ما تعودت عليها. صرت أراقبها. أتسلى بعدّها. أتقرب منها. أتعرف على سلوكها. أمازحها وأحدثها، حتى بتّ أفتقدها إن غابت أو تأخرت إحداها عن المجيء. ومع الزمن أحببتها. صارت جزءاً من اهتماماتي وهمومي. صرت رفيقاً للفئران. وبت مستعداً لفتح حوار معها, لاحتضانها بين راحتي بلطف مثل فراخ العصافير. بتّ أحلم أن أملأ جيوبي بالفئران الصغيرة العمياء، نكاية بالقطط، ولو كنت امرأة لاحتضنتها وأرضعتها وخبأتها في ثيابي الداخلية، كي تكبر ويصبح لها رادارات وأجنحة لحمية رقيقة، لتطير وتنام مقلوبة، مثل الخفافيش، على جدران الخرائب والسجون والأماكن المنعزلة.

- **«لقد كتب علينا نحن النساء أن تتحول أجسادنا إلى مستعمرات لأجساد الآخرين. وتبين لي أنني كنت مثلهن جميعاً، أجهز نفسي منذ الطفولة لأصبح مصنعاً صغيراً ينتج كل شهر بويضة واحدة. وتبين لي مثلهن أنني مجرد مستوطَنة للرجال. وأنهم سيغزون كراتي البلورية بمئات مئات الملايين من النطف الانتحارية الباسلة.**

- **كنت في السادسة عشرة من عمري. يومها بدأت أثق بالمستقبل وأعتز بكياني. أصبح لنهديّ طعم البرتقال، وتصالحت مع جسدي وروحي، وبدأت أفهم الحياة وأستمتع بها. وبقيت بكراً، أكثر من خمس سنوات، لم يلمسني أو يقبّل فمي أحد قَبله. ورغم أني كنت أشعر بمتعة غامضة وهو يداعبني في الأحلام، كنت أدفع أصابعه بعيداً عن براعمي. كنت في سن، جعلني أظن أن شفتي السفلى ستذوب إذا بقيت طويلاً بين شفتيه الغليظتين. وأذكر أني صفعته بقوة عندما أدخل لسانه في فمي ورحت أبكي مذعورة من الصدمة حين شعرت**

بشيء ما لزج، يشبه اللعاب، يسيل بين فخذيّ. ظننت أنني فقدت بكارتي، مثل تلك البطلة التي اغتصبها على خشبة المسرح وراحت تصرخ في العتمة مستنجدة بأهلها.. وقد بذل جهداً كبيراً وهو يشرح لي ويطمئنني حتى هدأت. وعندما عدت إلى البيت فعلت المستحيل كي لا تراني أمي. كنت أخاف من عينيها. ودخلت إلى الحمام خلسة وتفقدت نفسي، ثم نظرت إلى المرآة بخبث وقررت في المرة القادمة، أن أعض أصابعه إذا تجاوزت حدودها.. وتجاوزت كل الحدود، ووجدت نفسي أعض زاوية المخدة عندما صحوت من حلمي..

- في السنة الأولى راح كل منا يستطلع جسد الآخر. كان أكثر خبرة مني بالقبل والمداعبة والمناورة والتسلل.. وكنت أكثر خبرة منه بالممانعة والدفاع عن ثغوري، والمناطق الحساسة والخطرة في جسمي. ولم أكن أعلم حينها هل كنت أحبه أم أشتهيه! أم هو مجرد إعجاب برجل مشهور يستهوي الصغيرات، وقد تمكنت من الاستحواذ عليه دونهن جميعاً.. وكم كان محقاً حين قال لي:

- «الحب قناع. ونحن نغلف رغباتنا به، كي تتحرر أجسادنا من الخوف والعار. أجسادنا تسبقنا. تنضج قبل عواطفنا، قبل العشق والمعرفة وقيم الجمال والأخلاق.. يقودها الشيطان وتتمرد علينا، تحرقنا، ولا تأتمر بأوامرنا إلا بعد فوات الأوان.. ينجذب كل منا إلى الآخر معتقداً أنه الحب، لكن سرعان ما نكتشف أنه انجذاب الجسد للجسد.. إنه ينمو بمعزل عنا، رغم إرادتنا، قبِلنا ذلك أم رفضنا.. يصبح جامحاً، مستعداً للخطيئة قبل أن نضع سرجاً فوق ظهره ولجاماً في فمه.. أما الحب فيحتاج إلى وقت طويل كي يتفتح ويزدهر»..

- ورغم إيماني بأن جسد الأنثى مقدس، خطر، لا يمُس، غير أني بدأت أتنازل عنه عضواً بعد آخر، حتى أصبح لحمي كله ملكاً له. ولا أدري كيف ضحيت من أجله بتلك اللحظة التي تعتبرها الفتاة لحظة مصيرية في حياتها. وما فائدة اللحظات المصيرية؟ أغمضت عيني

وهتفت: لتذهب جميعُ اللحظات إلى الجحيم..

- كانت كفه النَّهمة ممدودة للضوء. وكانت العتمة خرافة. وصرت أحضن يديه وأقبل أصابعه العشرَ علناً. خمسُ أصابع تقشر فاكهة الحليب الدافئة فوق صدري، وخمس تقرأ ما تركته حواف الثياب الداخلية من علامات على جلدي.. كانت رائحته النفّاذة تلحق بي أينما حللت. وكان شعري الأسود الطويل يغطي عينيه أينما توجه. وكان كل منا يبتعد ليأخذ معه طيف الآخر إلى الشارع والمسرح والبيت والمدرسة وغرف النوم والحمامات. كنت أودّعه كل مرة لمدة قرن، كما لو أنني لن أراه ثانية، وأستقبله كل مرة كما لو كنت أراه لأول مرة.. فهل كان ذلك حباً أم غطاء للرغبات الجسدية.؟ لم يعد ذلك يعنيني، ولم أفكر بالإجابة حتى تركني فجأة وسافر ليدرس المسرح في بلاد الثلج والدببة.. وانتظرته طويلاً ليعود ويقول لي وهو يقف فوق خشبة المسرح، تحت بقعة ضوء صفراء:

- « أيتها المرأة الخريفية، عمت مساء. ها أنذا أحطم فأسي عند جذعك الصلب، وأركع أمام قدميك، فامنحيني حضنك الدافئ كي أستريح»..

وأقول وأبكي، فيقاطعني قبل أن أطبق شفتي على البكاء:

- «ها أنا ذا أكور نفسي كالجنين. فامنحيني رحمك للمرة الأخيرة..»

- ووافقت. حبسني بخاتم تنك مزخرف وقبل رؤوس أهدابي.. ارتديت فستان العرس المستعار. شبك ذراعه اليمنى بذراعي وأتينا إلى هنا مشياً على الأقدام.. ولكنهم سرعان ما أخذوه. لم أكن أعلم أنهم سيأخذونه بهذه السرعة. كان عمر ابننا أقل من شهرين. أخذوه كله. ولم أره بعد ذلك إلا من خلال القضبان...»



-٥-

اغتصاب امرأة تشبه أمي

تقدم الرجل بضع خطوات، فوق بقايا العفن الفسفوري، ثم توقف فجأة.. كان الذباب يملأ المكان. وكانت المرأة الخريفية تجلس هناك، على حافة السرير، خلف غلالة مترهلة من خيوط العنكبوت. ولم يفهم حينها، هل كانت تجلس داخل عباءتها السوداء أم كانت مغلفة بهالة من الذباب. وكي لا يختلط الأمر عليه، كان لا بد له أن يتذكر مرة أخرى أين رآها. هل هذه المرأة هي تلك التي انتظرته، صاحبة الباب الحديدي الرمادي المثقوب، التي شبكت ذراعها بذراعه وقادته إلى ذلك الوهم الكثيف؟ أم تلك العاهرة المستورة التي انتظرته كي تطعمه قليلاً من لحم نهديها مقابل ٥٠٠ ل.س «كاش»؟

كانت بقعة الضوء التي تنيرها تميل إلى البرتقالي الدافئ، تغطي وجهها ليس بطرحة عرس إنما بحجاب أسود سميك. تنظر أمامها واجمة كالظل الخائف من صاحبه، تغطي لحمها بجناحيها مثل غراب مقرور.. ركبتاها مضمومتان ترتجفان تحت معطف رمادي.. حقيبة يدها في حضنها بحجم قفل كبير.. يداها متشابكتان كقيدين من الحديد..

كانت ممثلة رائعة وموهوبة، وكان الصمت يخيم على الجمهور والعيون الواسعة تراقبها بمتعة وتحفز.. امرأة كاملة، آسرة، بلا ثغرات، لكنها منغلقة ككرة حديدية، لا يعرف إن كان قادراً على لمسها.. لا يعرف من أين يعانقها.. لا يعرف كيف يداعبها.. ولا يعرف بعد إن كانت تشبه كل النساء.. ومَن يعلم؟ قد يكون المخرج هو من أراد أن تبدو على تلك الهيئة المزرية...

- «وهناك. في العمق. تحت أضواء العيون الفارغة، على حافة السرير الثانية. كنت ويا للدهشة أجلس أنا..

- وأذكر أنها علقتني في إطار على الجدار حتى سقطتُ. وأذكر أنني سمعت الفضاء يتكسر، ورأيت الغبار يشب ويخبو. وأذكر أن الزجاج سقط على قدمي، وبقي وجهي وحيداً معلقاً هناك, عالياً يتكئ على الهواء, يفرك عينيه.. يرفع حاجبيه مستسلماً للفراغ، مائلاً كالأبله، يكاد يصرخ: يا ستّار.. سقطت الجدار، سقط الجدار، وبقيت أنا معلقاً في إطار مكسور.. كنتُ مستطيلاً بأربعة أطراف متساوية، فأصبحتُ مثلثاً مقلوباً تنقط من زاويته السفلى يرقات الانتظار.. وتقول لي إنها شهقت حين سقطتُ. وتقول إنها رفعتني وتركتني أعيش داخل القلب. داخل إطار في القلب. داخل قلب في إطار من خشب منخور شبه منحرف..

- ومنذ ذلك الجدار وحتى الآن، وأنا أعيش هناك وحيداً. لا أعرف كيف أصافح الناس؟ لا أعرف كيف أرد التحية للعابرين؟ أنا الذي رفض الاعتراف بأنها هبة الليل، وأنها التقطتني من الشارع وأخذتني بسيارة بلا نوافذ إلى زنزانة منفردة بلا أضواء ولا أهواء. أنا الذي احترت كيف أراها: مقشرة كزجاجة فارغة؟ أم خيمةً تمشي على أعمدة من عاج؟ قنديلاً مطفأ؟ أم بدراً يتنفس في كيس أسود؟ أم وردة عارية تتباهى بأعضائها التناسلية أمام الرجال.؟»

سنوات كثيرة ستمضي قبل أن يتمكن من سرد الحكاية..

يقولون له: «أما زلت تذكر تلك الأيام؟ ألم تنس بعد؟»

ويقول لهم: «حقاً لا تذكرون؟» هل يعقل أن تنسوا كل ذلك؟ إذا نسيتم تصبح العيون بلا أحداق والمدارس بلا أطفال..»

ويقولون: «أصبح ألمك عتيقاً.. انظر إلى ما يحدث حولك هذه الأيام من مجازر وتجاوزات. أصبح القمع عادياً، عابراً للمحيطات والقارات. تحولت الطائرات إلى زنازين تحلق فوق الغيم. والقمر سوف يصبح ذات يوم سجناً

للمارقين من سكان الأرض، سجناً مركزياً لوكالات المخابرات الأمريكية.. دع الماضي وانظر إلى الأمام حتى لو كان خلفاً..»

إلى الأمام، إلى الأمام.. ولكنه كان ينظر إلى الخلف، ويقول لهم:

- «وهل يصبح الألم يتيماً؟ ألا يجب أن نجد شيئاً نقوله لأبنائنا! تعالوا نعلن الأسماء والأمكنة أولاً، تعالوا نعلن الحداد أولاً، تعالوا نحاسب العسكر الذين لم يكتفوا بقتلك بل رقصوا على جثتك وبالوا في طعامك. تعالوا نحاسب القتلة أولاً ثم ننظر بعد ذلك إلى الأمام..»

سنوات كثيرة سترف كأجنحة النوارس فوق مسلخ الغروب. سنوات تحترق كالعشب البائس بين حجارة الخرائب، كالجفون المفتوحة قسراً أمام شمس الصيف. أحداث كثيرة ستجري تحت جسر الفصول التي تحولت رغماً عنها إلى فصل واحد، فصل دائم طويل، إلى حكايات مستديرة مسننة تأكل أبطالها.. وما الفائدة أصلاً من الحكايات والمسرحيات وتماثيل الخزف التي سيحطمها ثور هائج!؟ من يستطيع أن يستمتع برواية مملة مفككة يختلط فيها الوهم بالحلم، واليومي المبتذل بالخالد الأزلي؟ رواية كالثغاء يفتقد نسيجها إلى النكهة والهوية والبناء, رواية بكِماء سريالية واقعية خرافية وحشية، ملتزمة بالصمت، مبشرة بالحداد.. الحقيقة فيها تغدو وقاحة وقسوة. والوهم يصبح كابوساً بلا نهايات. من يستطيع أن يصدق كابوساً بطول العمر، عمرٍ بلا معنى، خيالات مشتتة، هذيانات صارخة، كلمات خرساء!؟ كل الكلمات خرساء. كل العبارات بغايا، ما إن تخرج من بيتها، حتى تبيع لحمها لأول زبون في الشارع العام..

- « كانت أبواق الصباح النحاسية تقتلع العصافير المذعورة من أعشاشها وتطردها بعيداً عن الأغصان. وكان العلم متجمداً من البرد في سماء مدرسة المشاة بـ/المسلمية/. وكنا جميعاً نقف، كالمسامير، لتحية العلم. علم بلادنا..

- وكنت أتساءل: ما السر الذي يجعل الأبصار تتجه إلى قطعة ملونة من القماش, تعبدها القلوب والعقول وترفعها الأيدي في المهرجانات

العامة والاحتفالات الحزبية والجماهيرية ومناسبات الحرب والسلام؟ لماذا يرفعون العلم نحو الأعلى، فوق المدارس والمؤسسات والمصانع والجمعيات!؟ هل لأنه يشبه الله في شيء؟ أم لأنه الأقرب إلى السماء؟ أم هو وليّ من الأولياء الصالحين عاقبه الكفار فعلقوه فوق السارية، ملطخاً بالدم!؟ الأحمر يجري في العروق، والأسود بؤبؤ عين يسبح في البياض، والأخضر يمتد في الأعماق حلماً تحرثه جنازير الدبابات والقنابل وقيود الحديد.. إذا كان العَلَمُ رمزاً وطنياً، فلماذا يعبثون به، ويرتكبون باسمه وتحت رايته أبشع الجرائم.!؟ يعلقونه في المكاتب وفوق السجون وفروع الأمن والمسالخ!؟»

وكما لو أنهم سمعوه، يقترب أحدهم، مخترقاً الصفوف. يقبض على زنده بقوة المتمكن ويهمس بلطف: **تعال معي..** ويخرجه من مكانه واضعاً يده حول كتفه مثل صديق حميم، بينما تصدح موسيقى النشيد الوطني: «حماة الديار عليكم سلام»، وتنتصب القامات وتشخص العيون نحو السماء وترتفع الأصابع المضمومة المشدودة إلى حافة الرأس، لتحية العلم، الذي كان هناك في الأعلى يرتجف من البرد: يرى كل شيء. يفهم كل شيء ولا يقول شيئاً..

كان ثلاثة آخرون، مسلحون بالبنادق، يقفون بجوار سيارة جيب عسكرية. كانوا صامتين طبعاً- ينظرون أمامهم فقط- عيونهم مطفأة.. شاخصة ومطفأة. لا ترف ولا تلتفت.. كانوا مسلحين بالصمت تحت الثياب، وكانت السيارة زيتية مبقعة بالرمادي والأخضر، لها نافذة واحدة مغلقة بأسلاك الحديد.. لم يكمل النشيد الوطني.. أخذوه من النشيد واستقبلوه بصمت.. فسحوا له المجال بصمت.. هزوا رؤوسهم بصمت. وما إن دخل إلى السيارة، حتى عصبوا عينيه بمنديل أسود وانطلقوا مبتعدين عن الساحة وسواعد الطلاب الضباط المرفوعة والقامات المشدودة والموسيقى الوطنية والعلم المعلق بين السماء والأرض..

من أنتم؟ لماذا؟ ماذا تريدون؟ إلى أين.؟ لا أحد يجيب. جميعهم ينظرون إلى الأمام ولا يتكلمون. فالمسلحون لا يتكلمون. قطط سوداء وعيون مطفأة فارغة..

كل ما استطاع فهمه أخيراً، هو أنه مدعو إلى فنجان قهوة عند **/المعلم/**، ثم يعود طبعاً لتحية العلم الصامت فوق السارية..

- «عندما أمسك قائد الدورية بذراعي وقادني خارج الصف لم أشعر بالقلق. ظننت أنني بين أيادي الجيش الأمينة.. الجيش السوري البطل، الذي انتصر في جميع الانقلابات العسكرية وخاض معارك التحرير، وينوي توحيد الأمة واسترجاع الجولان وفلسطين ولواء اسكندرون ومزارع شبعا..

- جيش أديب الشيشكلي الذي اقتحم السويداء في الخمسينيات، وجيش أمين الحافظ الذي دمر حماه مراراً في الستينيات وجيش الأسد الذي دمرها في الثمانينات وانسحب من الجولان دون قتال، وسلم العراق لإيران، وسلم المناضل الكردي عبد الله أوجلان لتركيا ومعه لواء اسكندرون، وركّع المدن السورية ودخل إلى لبنان ليدمر المخيمات الفلسطينية ويقضي على الحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط ..! ثم إني مدعو لفنجان قهوة عند المعلم. وكلمة «معلم» لو تعلمون، لا تعني شيئاً كما تعني المثل الأعلى والشرف والجاه والبطولة والأخلاق والمسؤولية والنبل والجلال والاحترام والعدل. فهل يعقل أن أقلق أو أخاف من «المعلم»!؟ كنت مطمئناً طبعاً، لكنهم عندما أحكموا العُصابة على عيني توقفت عن التساؤل والكلام، وعندما تلقيت أول صفعة في حياتي من السجان، وكنت حينها مقيد اليدين، تأكدت بأن كلمة معلم لا تعني إلا شيئاً واحداً هو النذالة والخسة البشرية.. فمن يصفع سجيناً مقيداً، يصفع وطناً».

تضع المرأة حقيبة يدها على حافة السرير بحركة بطيئة، وتحرر يديها من يديها. يدير الرجل ظهره المحني عندما يسمع صليل الحديد. يخبئ رأسه بين كفيه وهو ينهض.. كان مستعجلاً لسبب ما. دعته هي، إلى فنجان قهوة فلبى الدعوة. طلبت منه الجلوس على السرير فجلس.. طلبت منه الوقوف فوقف.

كان ينتظر أن ترفع حجابها, أن تطرد القطط من الزوايا وتطلب الإذن من العصفور كي يدير وجهه حين تخلع العروس الحجاب.. ولكنها لم تفعل. وهو لا يستطيع فض بكارتها أمام القطط والعيون الصفراء الملتهبة. ولا يعرف كيف يمارس الحب مع غراب مسربل بجناحيه.. كان ينتظر, وكانت هي أيضاً تنتظر.. ودون أن يطلب منها الإذن، بدأ بخلع سترته، لكنها نهضت بسرعة وارتباك.. اقتربت منه.. التصقت بثيابه، متجاوزة كل الحدود، وهمست دون أن تنظر إليه:

- **«خلينا نطفي الضوء..»**

يجمد في مكانه بنصف سترة، ويقف بينهما نصف صمت أخرس:

- «عن أي ضوء تتحدث هذه المرأة الغريبة القريبة من الحلم؟ لم يكن من ضوء سوى بريق عينيها وبريق عيون القطط الصفراء البعيدة..»

يخرج الرجل زجاجة نبيذ من جيب سترته ويجلس على سريرها.. تهرب المرأة بشكل لاشعوري نحو قطط الزوايا وتطردها. تموء القطط محتجة، وما إن تغمض عينيها أخيراً، حتى يعمّ الظلام الدامس ويعلو صراخ قادم من الليل العميق..

«قيييي.. ف» .. «قيييي.. ف» .. «قيييي.. ف ..»

إنهم حراس سجن تدمر العسكري.. يتوقد الجمر تحت الرماد.. تلمع مخالب الأسلاك الشائكة.. يلطم الطائر القفص بجناحيه.. تتمزق خيوط العنكبوت.. يقفز الرجل من مكانه ويحشر جسده في الزاوية.. يضع راحتيه على أذنيه.. يندلق النبيذ الأحمر على صدره.. يتكور على نفسه.. يتخذ وجهه هيئة قرد حقيقي. تهاجمه صور غامضة لمعارك بالسلاح الأبيض حفرتها العتمة في الذاكرة.. ويبدأ العرض المسرحي من جديد..

« قيـ.. ف « .. « قيـ.. ف ..»

ويردد الليل الصدى.. يصغي إليه الرجل دون حراك.. يسيل النبيذ على العفن الأبيض.. تتحرك الإسطبلات الواسعة ذات النوافذ الضيقة العالية.. إسطبلات الخيل والبغال، التي بناها الفرنسيون، والتي أصبحت عنابر

للمعتقلين، تحرسها فضائح الضوء والأمن والرصاص الحي.. ويرتفع صراخ الحراس من جديد..

«قيـ.. ف» .. «قيـ.. ف» .. «قيـ.. ف..»

كان الديكور متقناً ومعبراً عن الفكرة.. فقد اختُصر إلى علبة مكعبة الشكل، بثلاث جدران مرتفعة، تجعل المشاهد يشعر بأن المكان مجرد قبو عميق، رغم أن كوة مستطيلة ضيقة كانت تفصل بين أحد الجدران والسقف، ويسطع منها ضوء باهر يشبه ضوء النهار.. لكن مصمم الديكور أضاف إلى هذا المكان المغلق سلماً طويلاً جداً، متعرّجاً، يقود إلى تلك الكوة، ويبدو كما لو أنه لا يمت بصلة إلى هذا المكان المغلق.. فأنت لا تعلم إن كان يقود إلى الأعلى أم إلى الأسفل، وأنت لا تخمن إن كان من حديد أو زجاج أو ضوء، وأنت لا تصدق أصلاً إن كان موجوداً بالفعل، أم هو مجرد وهم، أو متاهة أو فكرة تخطر في البال ثم تختفي..

ويعلو الضجيج.. تنشب مناورة بالفوانيس اليدوية والكشّافات. تخترق العتمةَ حزمُ من الضوء، تستقر على النوافذ والأبواب المقفلة، وترقص الغيلان في ساحات التنفس.. تركض حراب الضوء المتعاكسة على الأسوار العالية، في الممرات الضيقة المسدودة، خلف الأشباح الهاربة.. كانت لدى الممثلين أوامر مشددة من المخرج، بإطلاق النار على الجمهور وقنص الشجاعة، والصراخ في وجه الخوف وتمزيق عباءة الليل إذا خفقت.. ولم يكن انقطاع التيار الكهربائي مسموحاً. ما فائدة المسرح بلا ضوء.. كان مدير الإضاءة يقول المسرح قطعة سوداء من الليل، تزينها القناديل، وترقص فوق جدرانها الأشباح. ويضيف بثقة: المسرح هو الضوء.. وكان الممثل يقول المسرح هو الممثل، الضوء وجد ليخدم الممثل، ولولا الممثل ما وجد المسرح.. وكان السياسي يقول: المسرح هو معلم الجماهير، فأنت لا تستطيع أن تقدم عرضاً لصالة خالية من الناس.. وكنت أدق الطاولة بقبضتي وأصرخ محتجاً: المسرح

الحديث هو المخرج.. لولا المخرج لمات المسرح منذ زمن بعيد. يعيش المخرج...

وهل يموت المسرح؟ تساءلت وأنا أصغي إلى أصوات الحراس وهم يتبادلون الصراخ من كل الأماكن البعيدة والقريبة، في جوقة من الأصوات المتوحشة الممطوطة، التي تطلقها ثيران خائرة:

«قيـ.. ف» .. «قيـ.. ف»..

المسرح لا يموت. لكن رجال الأمن لا يثقون بالتيار الكهربائي ولا يؤمنون بالمصادفة، يخشون أن تكون الكهرباء متواطئة لتهريب أحد ما من عنبر ما، في هذا المكان المحاصر بالأسوار والحراس والأسلاك الشائكة والألغام الفردية ورمل البادية والدوريات.. طرزانات الأمن والشرطة العسكرية، يعرضون عضلاتهم على العدو الداخلي. يصرخون. يركضون. يقفون، ليس على الحدود، بل فوق السطوح والأبراج. يدوسون مباشرة على الرؤوس. يدبكون فوق الصدور ويعوون كالذئاب:

« قيـ.. ف» .. « قيـ.. ف»..

يتقوس الرجل كثيراً. يتحول إلى إشارة استفهام. تقف المرأة في العتمة مكسورة كقنديل. كل ما في الأمر أنها لم تكن تريده أن يراها عارية. تعلم أنه ممثل مسرحي والممثل لا يحب العتمة الشاملة، لكنها تحب السرير بلا ضوء، لأن جسدها، بصراحة، أصبح مترهلاً. وربما رغبت أن تفاجئ أنامله.. أن تسرق انتباهه وتصدم فراسته بدفء خرائطها.. أن يتلمس بضاعتها النادرة بين السبابة والإبهام. أن يشم رائحة اللبان وهو ينتح من جلدها. كانت تظن أن الأنامل تكفي للضم والهمس والكلام والاستفهام، وتملك ذاكرة العين وفراستها.. ولكن هيهات أن يتقن الضم والشم رجل عُلّق من معصميه على جدار في حديد النافذة..

تركض المرأة نحو السرير. تشعل شمع أظافرها. يتلاشى الصوت. يصمت. تصمت.. تتركه ملطخاً بالنبيذ. تقف في منتصف الضوء متحدية، وتترك العباءة تنزلق عن كتفيها. تصبح عارية أمامه كالعجين المختمر. /أمامه فقط، وليس أمام

الجمهور. فهناك جدار رابع والمسرح في بلادنا محترم ولا يسمح بقلة الأدب/..

ينسدل الشعر على الكتفين، يخالطه الشيب والشباب: صدر أعجف. طيات بطن هدّها القصف وخيبات الأمومة. بلح غامق، ثديين رجراجين، سفرجلة ضيقة العنق سمينة الردفين.. تضم المرأة ساقيها القصيرتين. تحجب ما تبقى من مثلث الكحل براحتيها. امرأة عارية تماماً، نقابها السميك فقط يبقى ملتصقاً بوجهها. قطعة قماش سوداء، أصبحت قناعاً بلا قسمات، برقعاً غامقاً يشف ولا يشف عن عينين خائفتين.. يقف الرجل مبهوراً من الصدمة الثانية. هذا جسد لم يره منذ الطفولة. إنها المرأة الأولى, خابية اللحم الحي، التي تشبه كل الأمهات العاريات..

- «كانت تشبه أمي. وكنت أشبه أبي.. كنت نواة تنوس بين غصنين. بويضة واحدة بلا عينين. سقطت في الثلم، ومر المحراث بسرعة من جوارها فاخترقت تربتها الدموع البيضاء وتحولت إلى خلية..

- وعندما صرختُ تناول والدي فأساً وغرس شجيرة صغيرة في فناء الدار. وحسب العادات والتقاليد أطلق عليها اسمي. كان ذلك في كانون الأول، في عصر الجنرال الأول /جنرال الخمسينيات/، أديب الشيشكلي، طيب الله ذكره وثراه.. وكان أبي عريفاً في الجيش. رجلاً عسكرياً طويلاً أسمر. كان شبقا شرساً حنوناً كريماً قاسياً ورخواً.. ليس ذلك الأب الذي يعطي النقود ويمنع ويسمح، بل ذلك الذي يمنع. لا يعطي أبداً ولا يسمح أبداً. كان أبي أول محقق واجهته في حياتي: **«وين كنت؟ مع مين؟ ليش تأخرت؟»**.. يخطف الكتاب من يدي، ويصرخ في وجهي: **«قوم انقلع، واشتغل شغلة ثانية»**..

- يمزق الكتاب أمام عيني. يفك حزامه الجلدي- أبول في ثيابي- أحب المسرح. يطردني من البيت, ينجب دزينة من الأولاد وأكثر.. يضرب أمي وأكثر.. يضرب إخوتي ثم ينزوي في المضافة ويبكي بصمت وأكثر.. يدوس في وعاء العجين ثم يندم , يطعن الروح بخنجر، ثم يتراجع

ويسحب النصل من جديد، فيؤلمك مرتين, مرة عندما يعاقبك ومرة عندما يصفح عنك.. لا يعرف الاعتذار.. لا يبتسم.. يرمي قصعة الطعام من النافذة إذا تأخر الطعام.. يخرج من البيت.. يلبس عباءته السوداء المذهّبة، ويتركنا بلا غطاء.. يرفض التقسيم. يخوض حرب فلسطين. يبتلع رصاصة يهودية بين فكيه. يدخل المستشفى. يغدو بطلاً في نهاية الأربعينيات. يترفع. يصبح رقيباً، رقيباً أول، مساعداً، مساعداً أول. وينهزم عام ٦٧ وأكثر.

- تأخر وقتها أسبوعاً كاملاً بعد انتهاء الهزيمة.. ظنت أمي أنه استشهد أو وقع في الأسر، لكن تبين أنه كان يخجل أن يعود إلى البيت والبندقية الخرساء على كتفه ومخزن الذخيرة لم ينقص طلقة واحدة.. وعندما عاد، كانت أمي تغسل أقدامنا الصغيرة قبل النوم، وهي تبسمل وتردد أدعية وتعاويذ لم نكن نفهمها. كنا سبعة أطفال. وكانت أمي توزع أصابعها العشرة بالتساوي على سبعين إصبعاً في أقدامنا الصغيرة الأربعة عشر، المتجاورة كرؤوس الخراف داخل طشت نحاسي كبير، مليء بالماء الساخن ورغوة الصابون.. وكنا نساعدها بفرك أقدامنا وطرطشة الماء، وما إن ينتهي أحدنا من غسل وجهه وقدميه حتى يقوم بتنشيفها بتلك المنشفة الوحيدة الرطبة، ثم يرمي نفسه فوق ذلك الفراش الجماعي الأبيض النظيف المرقّع، الذي يغطي أرض الغرفة كلها، واضعاً رأسه على واحدة من تلك المخدات السبع المرصوفة في رتل عسكري مستقيم على طول الجدار.. كان بعضنا ينام مباشرة ويلعب بعضنا الآخر تحت اللحاف حتى يتغلب عليه النعاس.. وكانت أمي في تلك الليلة قد رفعت كالعادة طشت الماء الثقيل وراحت تعالج الباب الخارجي بكوعها لترشق الماء على مساكب الورد والحبق والنعناع، ولكن أحداً ما في تلك اللحظة فتح الباب فجأة. ووجدت أمي نفسها أمام رجل ملتحٍ، يلبس خوذة عسكرية وينتصب مثل شبح يحمل بندقية حربية. ومن هول

المفاجأة رشقت أمي وجه الشبح وصدره بماء أقدامنا.. كنت وقتها تحت اللحاف وسمعتها وهي تشهق معتذرة من أبي، وسمعت صوت والدي العاتب الغاضب، وهو يسب وينهر، ورأيتها من خلال شق الباب وهي تحتضنه مع البندقة وتئن باكية بصوت خافت كي لا توقظنا. دخل والدي يومها وركع فوقنا، وراح يقبلنا على غير عادته، فرداً فرداً..

- عندما كنت صغيراً كانت الأرض بالنسبة لي مجرد كرة من الخرق ألهو بها وتلهو بي. كبرت كثيراً، وما زلت أحلم ببيت صغير وحديقة صغيرة أزرعها بالعشب والأحلام والأوهام.. ألعب فيها متى شئت.. ألعب بترابها الميت وترابها الحي..

- أنمو أنا.. أكبر في وطن مؤثث بالصخور السوداء وطنافس الطين.. جئت متأخراً كثيراً عن الثورة السورية الكبرى ولكنني كنت مثل الجميع أجلس على الطين اليابس، أنتعل الطين الرخو، أنام تحت الطين والتبن المرصوص.. أهلي لا يعرفون الأنهار والبحار والغابات. كانوا يفترشون الجرود والوديان وسفوح الجبال. يلتحفون الغيم والغبار. يزرعون القمح والشعير والحبق.. نافذتهم الوحيدة هي السماء. حصيرتهم معرّقة بالزّوان والشّوفان. سجاجيدهم اليدوية مصنوعة من العشب الأخضر والشوك.. الرماد أسرتهم.. الأثافي مخداتهم.. الدخان أغطيتهم.. الضباب ستائرهم.. وجدران الحجارة العتيقة مكتباتهم النادرة.. أهلي يحبون الضيف والخيل والنساء.. قوم كرماء.. يصبرون على الظلم.. يصبرون على الجوع.. يزغردون للشهيد أو الشهيدة.. يذبحون الفتاة إذا عابت، يصبرون إذا ما دسّت الغربان مناقيرها في عيونهم.. يصبرون كثيراً إذا ما داست الأحذية العرفية خبزهم اليومي.. ولكنهم لا يطيقون الضيم ولا يصبرون أبداً إذا أهينت كرامتهم..

- أكبر بسرعة.. أطالب بالسلاح بعد هزيمة ١٩٦٧.. أصبح طالباً جامعياً في السبعينيات.. أحتار إلى أي حزب أنتمي: الشيوعي أم البعثي،

الناصري أم القومي السوري، أم مشتقاتها؟.. أعلق صور غيفارا ولينين وعبد الناصر و»هوشي منه» وأنطون سعادة.. أشارك في مظاهرات الاحتجاج ورفض الحركة التصحيحية. نرفض كل شيء ونحتج على كل شيء، على ما يجري في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية.. نحلم بالوحدة العربية والكفاح المسلح وتحرير الجولان وفلسطين.. ويحلم أبي أن ينال رتبة ضابط شرف، ولكنهم يحيلونه إلى التقاعد بعد حرب تشرين.. كانوا يعتبرونها نصراً وكان يراها أشد خطراً من الهزيمة.. «**خسرنا مصر**»، كان يقول، «**لن تقوم لنا قائمة بعد الآن**».. مات ولم يحرر الجولان.. كان مؤهلاً أن يصبح زعيماً أو قائد عصابة أو شهيداً، ولكنه بقي ضابط صف حتى آخر العمر.. عاد أخيراً ليصبح فلاحاً، ومات تحت الشمس، وهو يحرث الأرض، خلف مقود جرار /فريكسون/ عتيق.. رحم الله أبي وغفر له..

يشحب الضوء فجأة فوق الخشبة.. تعلق المرأة العباءة على ساعد السرير. تخلع حذاء الطين.. تخطو عارية فوق طرحة العفن الفسفورية. تعبر كالظل من أمامه، تاركة أصابع قدميها تبصم على البياض.. يتطاير الذباب كالغبار من حولها. يتبع الرجل خطاها بعينين فارغتين.. تصعد ببطء إلى منتصف السرير المقعر وتستلقي عليه فاتحة ساقيها.. ينحرف نحوها ويهم بإلقاء نفسه في الهاوية.. ولكنها تهتف فجأة بجرْس مسموع:

- «**خلينا نطفي الضوء..**»

- «من ينسَ ذلك الجرْس يُصَبْ بالصمم ويغدُ عنيناً. كم كنت أعشق بحّة صوتها: ينكسر الزجاج إذا ضحكت.. يهطل الثلج إذا همست.. ينقشع الضباب إذا شهقت. وإن تأوهت يذوب الشمع وتنسدل الستائر على غيم المساء..

- صوت المرأة دلع وفرح وأنوثة وعهر وطهر وآهات.. كانت متعددة الأمواج والموجات. متعددة الأوجه والمعاني والتفاصيل. تنثر البراعم النائمة

في حوض الورد على السرير.. ترفع الساعدين فيطل من تحت الإبطين عصفوران خائفان.. إذا مالت، يميل معها السقف، وإذا تقصفت فاحت من مساماتها رائحةُ الراتنج.. تمشي على شوك الرجولة بشفتيها الحافيتين.. توزع أعضاءها عليك.. تجلس بإحكام على صهوتك، تشهق وتزفر وتراكب، تصبح قوساً.. جسراً.. مغارة.. تصهل، تلطم كتفيها بالركبتين، تعضّ لحم الوسادة، تنتشي، تعرق، تتفكك، ثم تنام فوق رصيفك العاري..

- أصبح صوتها الآن يشبه النشيج.. أصبحت تشبه كل النساء..»

يشعر فجأة بالخوف منها وعليها.. يهرب منها.. يهرب إليها. يرتدي ما تبقى من سترته وهو ينظر إلى الأرض، ولكنها تستوقفه بإصرار، واضعة غطاء السرير على كتفيها:

- **«أنا آسفة. يمكن أنت.. فهمتني غلط..»**

يتحرك بسرعة.. تقف أمامه.. يدير ظهره.. يتجه نحو البحر.. تدير ظهرها.. تتجه نحو اليابسة.. يتلامس الكتفان.. يشم رائحة الرطوبة المالحة. يسمع صوت الموج الصاخب وهو يبصق على الصخور.. يرى القضبان العملاقة وهي تفصل اليابسة عن البحر.. يجلس فوق المقعد الحجري.. تستند إليه. يستند إليها.. تسري في ظهره رعشة باردة.. وقبل بزوغ الفجر، يشعر برغبة في الصراخ ثم ينكّس رأسه مقهوراً، فتسأله بلطف:

- **«طيب ما بدك تشرب قهوة؟»**

ودون أن تسمع الجواب تتركه وتبتعد.. لكنه يمسك ذراعها بقسوة لا تخلو من الرغبة ويجذبها فتبتعد.. تبعد رأسها عنه.. تحاول التملص.. يضع كفه الضخمة على وجهها الصغير، ويفض نقابها السميك بأصابعه الخمسة..

هو أيضاً كان يرتدي نقاباً سميكاً، هو أيضاً جرب ظلمة النقاب الأسود وظلمه. كان نقابه كيساً من الكتّان يغطي الوجه والقفا. نقاب سميك خشن، يمنع الرؤية

والتنفس والتفكير.. يجعلك متحفزاً تشعر بالوحدة والخوف من المجهول.. الفرق بينهما أنه كان مجبراً على ارتدائه، لا يشم ولا يرى شيئاً سوى عتمة البلاد ورائحتها النتنة، بينما كانت هي ترى من خلال نقابها، الضوء والوجوه والأرصفة وأوراق الأشجار والقطط، دون أن يراها أحد..

-٦-
نجوم ونسور وتيجان وسيوف

- « قبل أن يخرجوك من الزنزانة يطلبون منك أن تدير لهم مؤخرتك.. يقيدون يديك إلى الخلف ويضعون الكيس الأسود في رأسك. كانوا يسمونه «طمّيشة»، وهي تستخدم عادة للبغال، وكنت أسميه، على الطريقة الإسبانية /نقاب المرايا/..

- كان الإسبان يغطون المرايا حداداً على المحكومين بالموت. وكان الجلادون يغطون عيوننا كي لا نرى عيونهم. كانوا في الحقيقة يضعون الطميشة، ليس على وجوهنا نحن إنما على وجوههم، وهم لا يدركون أنك تستطيع أن تراهم بشكل أوضح، عندما يغمضون عينيك. يمسكون برأسك من الخلف ويدفعونك أمامهم ممسكين بقذالك. يصعدون أدراجاً. تعد الدرجات. يفتحون أبواباً. يغلقون. تعد الأبواب.. يتوقفون يتقدمون ينزلون ينعطفون يميناً يساراً، يدورون.. يوجهونك حيثما يريدون، ولا تدري إلى أين تسير.. يوقفونك أخيراً أمام جدار. تسمع أصوات تعذيب، تصرخ مستنجدة بصوت قريب واضح: «آآآخ.. دخيلا.. ك.».. ثم يعبر من جوارك رجل ملهوف يصيح: «وين الدكتور!؟ ولك نادوا للدكتور بسرعة. ولك بسرعة. صار بدو يموت».. وتسمع وقع أقدام وجلبة وتظن أن أحدهم مات تحت التعذيب فعلاً، أو أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.. ويمضي وقت طويل حتى تكتشف أنها واحدة من برامج التخويف والإرهاب التي يستخدمونها لتخويف القادمين الجدد وكسر إرادتهم..

- يدخلونك أخيراً إلى مكان صامت كالمقبرة. تشعر بوجوه تحيط بك. وجوه وقورة تتنفس هامسة موشوشة. يسألونك عن اسمك فتجيب معتقداً أنهم يريدون اسمك الحقيقي. يصرخون فجأة.. يشتمون يصفعون يركلون، ويذكرونك مرة أخرى بأنك صرت رقماً. ثم يسألونك فلا تجيب. تتلقى لسع سياطهم من الأمام من الخلف من الجانبين.. تسمع لعناتهم الرخيصة ولا تعلم لماذا ومن أين تأتيك كل هذه الضربات.. يبصقون عليك يقضمون أذنيك يخلعون ثيابك يطفئون السجائر في أعضائك، يجبرونك على الركوع، يبولون على رأسك، يفعلون بك ما يحلو لهم، ثم يعيدونك إلى مكانك متوعدين مهددين، في المرة القادمة، بالكهرباء والكرسي القلاب وبساط الريح و«الشّبْح» على الجدار.. بسحب الأظافر وقطع الأصابع وحتى الاغتصاب، إذا لزم الأمر، أمام المشاهدين..

- لم أكن أملك قدرة المسيح أو صبر الصوفيين على خيانة الجسد والموت صبراً. كان اللحم يتمزق والعظام تطقطق والحنجرة تصرخ. تريد أنت أن تمنعها، أن تقطع لسانها بشفرة إرادتك، ولكنها تأبى وتصيح راجية متلعثمة نادبة مستغيثة شاتمة: «ما بعرف. ما بعرف.. كلاب. وحوش.. وحوش.. وحوش..»

- لماذا كانوا يقومون بكل هذه الأفعال؟ لماذا لا يواجهونك!؟ لم يكن ذلك نزيهاً أبداً. هل كانوا يخافون أن نتعرف إليهم؟ أم كان ذلك حقاً لأسباب أمنية كما يدَّعون؟ هل كانوا يخجلون من النظر في عيوننا مباشرة، كما عبر عن ذلك ناظم حكمت في رسائله إلى زوجه أم محمد؟ أم كانوا يخافون أن نرى قعر عيونهم.؟

- كانوا يخافون ويخجلون. أنا أيضاً كنت أخاف وأشعر نيابة عنهم، بالخزي والعار من السيوف المتقاطعة والنجوم الذهبية والنسور الرابضة فوق أكتافهم.. حماة الديار.. جنرالات بأوسمة ونياشين.. يسقون القهوة لمن يريدون، ومتى يشاؤون. لم أشربها وحدي.. شربها الآلاف، مئات الآلاف

من السوريين من جميع الأطياف والأعراق.. وطن بكامله من المحيط إلى الخليج، ذاق قهوة الجنرالات، كما ذاقتها روسيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والصين وأمريكا اللاتينية...

- آه أيتها النجمة الذهبية لو تعلمين كم أخجل حين أتذكر نجومهم. آه لو تعلمين كم تؤلمني رأسي الوحيدة، عندما أراك تلمعين فوق أكتافهم.. ومع ذلك، لا أغبطك، ولا أرغب أن يكون لي خمسة رؤوس مثلك.. أنت لا تملكين قدمين.. محمولة دائماً: فوق صحن الفضة، فوق العتمة، فوق العلم الحزين.. وفي أسوأ الأحوال على الأكتاف تلمعين.. آه أيتها النجمة لو تعلمين كم أتمنى أن أراك تسقطين من العَلم مثلاً، تلبسين حذاء بالياً مثلي.. وفي الوحل «تخبّصين».

تحدق فيه.. تكاد تغضب.. ينظر مباشرة إليها.. يسمح لها أن ترى كل شيء في عينيه.. تصمت.. يتفرس فيهما ويصمت.. تلمع الدموع على خديها وتتساءل:

- **أين رأيت رجولته؟..**

- متى جربت أنوثتها؟

يتساءل بدوره ويسبل جفنيه مستسلماً. يرخي قبضته ببطء ويعيد إليها بكارتها.. تغطي وجهها من جديد. تتركه وتهرب نحو عباءتها السوداء:

- **«رح جهز لك القهوة..»**

- **«بقيت ثمانية وثلاثين شهراً لا أعرف عنه شيئاً.. سألتُ كثيراً.. ألف ومئة وأربعون يوماً سألت وبحثت عنه في الليل وفي النهار. تسوّلت الأجوبة من ضباط الأمن الخائفين الغامضين المتجبرين.. سألت الأشجار والساحات والأقبية. خفت كثيراً.. شكوت كثيراً.. تكلمت حتى نضب خزان الكلام. تعرضت للإغواء والمقايضة.. وقايضت الدموع بالأجوبة القصيرة والأخبار المواربة.. بكيت حتى جف الدمع في**

الحديقة المجاورة، وجف الحليب. ولم يكن «الأب القائد» مستعداً بعد لإرضاع أطفالنا.. كان مشغولاً عنهم بأطفال إيران والسعودية ولبنان وفلسطين.. سنوات كثيرة ستموت قبل أن أتمكن من صياغة الكلمات وتنضيدها، ولكن ما إن علمت أن هذا الغريب القريب سجين قديم، حتى بدأ الصمت يتبرعم والطائر يغرد وجدران الجليد تذوب. ورحت أسأله بلهفة: «حقاً؟ أنت.؟ متى؟ لماذا.؟؟»

تحضر فنجاناً من القهوة على راحة كفها. كم كان يخاف من القهوة.. كم مرة أحضرتْ الفنجان على راحة يدها. كان يستطيع أن يرفض.. أن يعتذر هامساً: «تركت القهوة من زمان» ولكنه يضم أصابعها بأصابعه ويترك الفنجان. كم مرة نسي الفنجان وضم أصابعها الرقيقة التي تحولت الآن إلى قضبان حديدية صغيرة متهرئة. كان يستطيع أن يغلق سحّاب السترة على صدره، أن يتراجع إلى الخلف معتذراً بيدين صامتتين، ثم يغلق الباب على الضوء ويمضي. لكنه، وكما لو أن الجاذبية حطمت إرادته، جلس على حافة السرير، أمام القطط السوداء، محني الرأس منكسراً، وراح يحدق في الأرض الفسفورية العفنة وهو يمسك الهواء بين راحتيه..

لم يفهم قصدها.. لم يتوقع أن تكون هي أيضاً زوجة سجين قديم، ولم يفهم لماذا باح لها هي بالذات، بكل هذه الكوابيس العتيقة العزيزة، التي بقيت مستعصية في صدره كل هذه السنوات..

- « **بشو عم تفكر؟**»

سألته بحياد فرفع رأسه أخيراً نحوها وتساءل:

- «مين أنت.؟»

اختلط عليه الأمر ولم يعد يدرك في أي زقاق رآها.. متى؟ أين؟ كيف؟ في أية سنة؟ في أي عصر.؟ تبتسم. تدير ظهرها وتجلس على الحافة الأخرى، مقابل الجدار تماماً، حيث كانت تجلس، كل هذه السنوات، عندما تداهمها الكآبة. كان ظله أيضاً يجلس أمامها.. يغطي الأحرف والأسماء والتواريخ القاسية

المحفورة بأداة حادة فوق جدار أصرّ المخرج أن يبقى مضاء ببقعة صفراء.. ولكن المسافة بينهما لم تكن تسمح لها بأن تتكئ بظهرها المتعب على ظهر هذا الرجل المفاجئ المنسي الذي كسر زجاج صمتها، وأثار شهيتها للبوح. لم تكن المسافة باردة لتبتعد عنه، ولم تكن دافئة لتلتصق به أكثر وتستند عليه.. أدارت ظهرها ببطء وجلست.. وبعد صمت طويل تنفسّت. لم يكن من السهل عليها أن تبدأ الكلام أمام هذا الغريب القريب المبعد.. لم تكن تعرف من أين تبدأ الحكاية وكيف تحكيها.. ووجدت نفسها فجأة، تتحدث للجدار:

- **«كان عمري ٦٢ سنة لما أخذوه..»**

تغصّ.. تشهق.. تكاد تبكي، ثم تتماسك. تميل بظلها على ظله وتتمتم:

- **«يا ريت أخذوني معو..»**

- «عن مين عم تحكي؟»

- **«عنو.. وكان عمر ابننا أقل من شهرين..»**

تضع راحتيها على عينيها وتختبئ. تختبئ طويلاً خلف راحتيها وهي تنظر من خلال قضبان أصابعها ليس إليه، إنما إلى ظله المقابل. ويبقى الجدار صامتاً بدوره. لم تكن ممثلة تحفظ دورها، وما إن تؤديه على الخشبة، حتى تعود إلى حياتها الطبيعية، بل امرأة حقيقية عاشت وتعذبت، ولن ينتهي دورها عندما ينطفئ الضوء وتسدل الستارة ويصفق الجمهور. لن يصفق لها أحد ولن يشعر بمعاناتها أحد.. ولم يكن الجدار ديكوراً، بل جداراً قديماً سميكاً يكنز تاريخاً وأسراراً وذكريات وعذابات.. مخزن للخرائط السرية والتضاريس المحرمة والغموض والصور العتيقة والأسماء المحفورة فوق الأسماء، والتواريخ الحديثة فوق القديمة. صمتٌ صلب لا يخترقه رصاص النسيان، وصراخ فاجع لا يسمعه أحد.. كان في الماضي يجلس خلف هذا الجدار، يستند إليه. يتسلى بقراءة تضاريسه وحروفه. وها هو اليوم يجلس أمامه وأمامها.. وكانت هي أيضاً تجلس وحيدة أمام هذا الجدار تستعين به، علّه يقوم بعرض بقية الحكاية على سطحه الخشن: ملامح وجوه وأجساد غامضة مرت من هناك.. ظلال كثيرة واضحة

ومشوشة عبرت قبل أن تراه وتتمكن من سرد الحكاية. حكاية طويلة لعجوز فقدت أسنانها.. فقدت أناقتها وهندامها ورغبتها في الحياة.. ذبابة سقطت في شباك عنكبوت امتص حياتها وحنّط جناحيها. كانت الحكاية سهلة عندما كان الناس يتواصلون.. يجتمعون يستمعون ويستمتعون. أصبحت الحكايات مملة كالانتظار.. سلعة للتسلية والسأم والتثاؤب..

كانت تجلد الجدار بذيل كحلتها حتى ينطق ويعترف. كم مرة جعلت هذا اللوح الإسمنتي السميك الواقف أمامها، يخضع لإرادتها ويشف عن رغباتها المكبوتة.. كم مرة أغوته حتى انصاع وخرجت من سطحه القاسي أنامل عمياء مسحت دموعها ودغدغت صدرها وبطنها وردفيها.. كم مرة حطت طيور المساء الرمادية على كتفيها وعششت في طين الفخذين.. كم مرة رقصت على إيقاعها طعنات الأصابع. كان الجدار، إذا ركعت أمامه، يهمس، يئن، ينتعظ، يتأوه، ويرتعش مثل رجل حقيقي، يفرغ دموعه البيضاء في راحتيها، ثم يدير ظهره وينام.. كان الجدار بلا نافذة. بقي صلداً صامداً كتوماً كالفحم الحجري، وبقيت يدها فارغة ملوثة، هذه المرة، بدموعها السوداء.. وكل ما استطاعت أن تبوح به هو بضع كلمات هامسة مفككة:

- **«كان عمر ابننا. أقل. من شهرين..»**

ويختلط الأمر عليه.. تصبح المرأة أكثر غموضاً. هي أمّ إذاً. طبعاً كانت متزوجة، وكان لها ابن. وهو أب، وله ابن أيضاً.. ويكاد من فرط الدهشة يسألها عن اسم ابنها، لكنه يخاف من حزنها ويفضل الصمت ويتكور منتظراً أن يسمع حنين الكلام.. يصبح مثل ظله، كتلة خرساء. ويجري بينهما حوار ساذج: تسأله عن اسمه فيعطيها اسماً مستعارا **«أبو أنس»**، ويسألها عن اسمها فتحتار أي اسم تختار ثم تهمس:**«أم أنس»**. وتعترف أنه ما زال يقبع هناك منذ أن عرفته وجذبته وأدخلته إلى قفصها الذهبي وهو يجلس هناك في الزاوية..

يتكور الرجل على نفسه من جديد.. يضع رأسه بين كتفيه، ويتخذ وجهه هيئة تيس وقور. زوجة سجين وحيدة أمام الجدار وسجين وحيد خلفه، يجتمعان

في غرفة واحدة.. أسرة صغيرة داخل قفص كبير بحجم شرفة تطل على حوض الأبيض المتوسط، رفعوا فوقه علماً. كان بعد الاستقلال نقيباً بثلاث نجوم حمراء تحولت فجأة إلى خضراء، ثم عاقبوه أيام الوحدة وكسّروه إلى ملازم أول بنجمتين.. ثم رقّعوه إلى رتبة رائد بنسر ذهبي، ثم كسّروه من جديد ليصبح علماً بنجمتين لوطن بات يغصّ بفنادق الخمس نجوم.. وطن واحد. شعب واحد. أمة عربية واحدة. وقطعة قماش متعددة الأشكال والألوان، ترفرف فوق قفص معدني كبير، يحده من الغرب جبل وبحر وينابيع وأشجار أرْز.. ومن الشمال جبال ثلج وأكراد ومرج ابن عامر ومنابع دجلة والفرات.. ومن الجنوب أفخاذ العشائر والهنود السمر واليهود.. ومن الشرق قبائل المغول وأسراب الجراد الحر، ويحده من الداخل حزب واحد، وزعيم واحد، وقطيع واحد، وجبهة تقدمية واحدة، وأحكام عرفية، وفساد، وجيش عقائدي، ومجلس شعب، واتحادات عمال وفلاحين وحرفيين وكتاب ثوريين، ومنظمات طلائع بعث وشبيبة ثورة وطلبة ونساء ومحاربين، ونقابات أطباء ومهندسين ومحامين وفنانين ملتزمين.. وعدد لا يحصى من الخائفين..

كان يعلم أنها ستصمت وأنه سيتوقف أيضاً عن الهذيان، لأن جداراً رابعاً من الوهم كان يقف هذه المرة بينهما. ثلاثة جدران من الإسمنت المسلح وجدار رابع من الوهم. وحتى لو تكلمت، لن تحكي له الحكاية كلها.. كانت تجيبه ببرود وحذر: ليس هذا وقت الكلام. كان الكلام يجلس في الرئتين، على كرسي من شوك.. يزفر ويشهق ويختنق. ثم انفتح خزان الذاكرة وكاد يجرفها ويجرفه. وتدير ظهرها للجدار الوهمي وتتجه نحو الرجل مباشرة وتسأله بحنان:

- **بأي سجن كنت؟**

- أنا.؟

يبتسم لها ويجيبها بحنان:

- بكل السجون تقريباً.. فرع التحقيق العسكري، سجن المزة، سجن تدمر العسكري وسجن صيدنايا العسكري الأول...



-٧-
تقمص

- «لم أكن في أي سجن، بل كنت أجلس في الزاوية, في أضيق مكان من تلك الزاوية.. أجلس وأهذي. وكان المكان بلا كرامة.. معتماً مضيئاً واسعاً ضيقاً غامضاً وشديد الوضوح والغرابة مثل الكوابيس..

- ولكنني، وأنا المحاصر داخل إطار مكسور، تحوّلت رغماً عني إلى مثلث بلا قاعدة. غرست رأسي فوق مزبلة الرماد العارمة.. رفعت كتفي سبورة للغبار. فتحت رجلي كثيراً كي تمر الهاوية.. كانت الجبال تتناسل من تحت إبطيّ. والعشب اليابس يطل من بين أضلاعي.. وكانت اليرقات تنقط من زاويتي السفلى وأنا أنتظر أن تمر العاصفة.. حشرت مؤخرتي كالعادة في مكانها. أشعلت لفافة تبغ حقيقي ورحت أنظر من تحت أضلاعي إلى الفراغ.. فراغ مكتظ بالأجساد النائمة المتشابكة المرصوفة أمامي مثل أكياس الطحين في فرن معطل. ٤٠ سم لكل جسد، بغض النظر عن الطول أو الحجم. شبر وخمسة أصابع، نصف ذراع أو أقل من نصف خطوة متواضعة. أضيق من قبر عادي، وأوسع من راحة كف.. وكانت تنشب بيننا المعارك من أجل سنتيمتر واحد، ما اضطرنا أن نضع حدوداً وإشارات واضحة محفورة على الجدار بواسطة حجر كلسي.. كنا ننام متعاكسين في محاولة بائسة لإبعاد وجوهنا عن بعضها. وكم كان يصحو أحدُنا ليجد نفسه معانقاً أو متوسداً قدم الآخر..

- كانت كواشف الضوء المسلطة على الأبواب والنوافذ تحول أجسادنا

إلى تلال صغيرة من الظلال. أجساد متلاصقة كالتوائم، تتنفس وتتحرك داخل البطانيات الرمادية. كنا نخيط البطانيات العسكرية الجرباء لنحمي أنفسنا من البرد.. وكنت أعلم أن ذلك المكان مملوء بالكائنات الحية وغبار الموت والأفكار.. كنت أفكر. أحشر مؤخرتي في الزاوية كأي مثلث عاقل يجلس على قاعدته المتهرئة مهموماً، مكسور الظهر، يسند رأسه الثقيل بأحد أضلاعه ويفكر مقطب الحاجبين.. كانت العتمة تشبه الضوء، وكان الضوء يشبه العتمة.. ضوء يلعب بذيله خلف الجدران، ينسلّ عبر الشقوق، فيبدو المكان ملطخاً عتيقاً آيلاً للسقوط, وعتمة باردة دائمة تشوه المشهد والشهداء. ضوء مخاتل مخنث بلا عينين، لا تدري إن كان يطل عليك بصدره أم بقفاه. وعتمة تجاوزت سن اليأس وراحت تضغط أجفانك بقفازها العسكري.. مكان ملطخ عتيق كخوازيق العثمانيين أو مشانق العرب أو مقاصل الفرنسيين. ماخور فاجر ومؤدب، صاخب كديدان المقابر، وصامت كالشاهدة. لو لم يتردد فيه نَفَس وتتحرك على جدرانه ظلال، لاعتقدتَ جازماً، أن الخفافيش هجرته منذ سنين.. وعفن سابغ يكاد ينقط من أكياس النزلاء وصررهم المعلقة بحبال غليظة فوق الرؤوس الحليقة..

- وكنت أسأل الجدران السميكة العمياء عن نوافذها. أليس من حق المكان أن يكون له نافذة واحدة على الأقل.. نافذة واضحة.. ليست ضيقة ولا مرتفعة.. نافذة بلا قضبان تقف في وجه الشمس، أو مسامير تغلق الهواء؟ وكنت أسأل الجدران النخرة عن تلك التواريخ والأسماء المحفورة فوقها.. كنت أسأل عن أصحابها، عن تلك الأكياس القذرة المعلقة، التي تحوي كل ما يملكه المعتقلون من ثروة: وكنت أتساءل: أما تعبت هذه الأكياس من التعليق؟ أما إن لها أن تسقط وتجلس على مؤخراتها مثل الآخرين؟ هذه الأكياس كانت مثلنا.. كان لها أطراف وأصابع وهامات، ضمرت ولم يبق منها سوى الكروش والياقات

المشدودة بربطات عنق «زرّاديات»، تحولت مع الوقت إلى مشانق صغيرة حائلة. كانت فوقي.. تحاصرني. تضغط عليّ.. تغلق ما تبقى لي من فضاء ضنين. وكان الآخرون من حولي، داخل البطانيات، متجاورين، يتنفسون برتابة وحنين. أكياس خام شُنقت وتعفنت منذ سنين، وتلال صغيرة من الرماد الحي، متلاصقة كالتوائم تحجب الأرض الإسمنتية وتتنفس.. أشعلت بدوري سيجارة أخرى ورحت أتنفس.. كان التدخين مسموحاً في بلاط الموت هذا. وكنت قد حسمت أمري أخيراً وقررت أن أصدق الموت.

- لم تستطع كل الوقائع إقناعي بأننا ما زلنا أحياء، لا يرزقون ولكنهم يتنفسون.. لا يرون شجرة.. لا يتحركون.. لا يعانقون أحداً.. لا يلمسون امرأة ولاهم يحزنون.. لا يفرحون.. لا يبوحون بسر.. لا يركضون لا يهجمون لا يهربون.. لا يتسلقون فراشاً لا يحترقون ولا يحرقون.. لا يغلقون باباً أو يفتحون زجاجة أو يطفئون شمعة أو يضيئون.. لم نعد حتى أرقاماً كما كنا أيام الزنازين. سقى الله أيام الزنازين.. أيام التعذيب والألم والصراخ والشتائم.. أيام البطولة والأسرار الكبيرة والصمود الساذج والأمل المريض. كنا نأمل على الأقل، ثم فقدنا الأمل وبدأنا نتأمل. وكنا نحلم، ثم فقدنا الحلم وبدأنا نستحلم.. كنا نتألم ونشتاق ونتذكر ونصدق ما يدور حولنا، وبعد مرور كل هذه السنوات بتنا واثقين بأننا متنا منذ زمن بعيد. وأننا لا نعيش حياة بل آخرة، يتوقف فيها الزمان والمكان عن الحركة. يخيّل إلينا أننا نعيش، ونصدق خيالنا. لا نصدق شيئاً سوى الخيال..

- ذات يوم وضعوا مكبرات صوت وبثوا لقاء مع حافظ الأسد، أجرته صحيفة أمريكية، وأجبرنا الحراس على سماعه.. سألته الصحفيّة فجأة عن المعتقلين السياسيين في سوريا. فقال لها: «لا علم لي بوجود سجناء لدينا، هذا جزء من الحملة الإمبريالية الصهيونية المعادية لسورية».. كان عددنا أكثر من ١٠ آلاف معتقل، في تدمر فقط. وكنا

نصغي بعيون مفتوحة، وكان الحراس أيضاً يصغون معنا، وكدنا نصدق بأننا غير موجودين بالفعل..

- ومن يستطيع أن يعلم كيف يعيش الناس في العدم؟ نسينا الواقعية والمنطق وأصبحنا بوتقة للسريالية والأفكار الغامضة. آمنّا بالخرافات والغيبيات والشعوذة. آمنّا بالأرواح الشريرة والأرواح المهاجرة والتقمص بعد الموت كي ننجو من هذا الموت..

- وبدأت حواراً طويلاً مع روحي وأعضائي ووجهي. وجهي الذي لم أكن أراه ولا أدري إن كان سيعرفني إن رآني. منذ زمن بعيد، منذ أكثر من جيل وأنا أبحث عنه.. لا يمكن أن أجده في الصورة أو في المرآة أو في الذاكرة. ولا أستطيع أن أنساه.. أحاول أن أتذكر أين رأيته. إنه لا يشبهني أبداً ولكنه كان ذات يوم أنا. كان وجهي الحقيقي، ليس بالمعنى المجازي، وليس ادعاء أو هذياناً أو جنوناً، إنما هي حقيقة لازمتني منذ الطفولة. أربعون عاماً ونيف وأنا أحاول أن أتذكر أين رأيت وجهي.. أتذكر وأتجاهل، وأستمتع بهذه اللعبة الجديدة. لقد هيمن على حياتي الحالية وأصبح مصدر قلق في الصحو وكابوساً مرعباً في النوم. أصبحت حياتي المضطربة ثنائية، شبيهة بالحلم الذي يبدو أنه لن ينتهي. ولسوء الحظ، شاءت الأقدار أن أعيش أكثر بكثير مما تتوقعه الخرافة.. لقد أطالت الزنزانة عمري.. أضافت لي عمراً جديداً أطول وأجمل من ذلك العمر الذي منحني إياه رحم أمي الأولى. أنا الآن أنتظر أن ينفذوا بي حكم الإعدام.. لقد صدر الحكم فماذا ينتظرون؟ وهل يصدر حكم بالإعدام على ميت!؟ يتريثون إذاً حتى يصبح جسدي الجديد مستعداً لاستقبال روحي القديمة. أمي الآتية لم تشعر بعد بالوحام، ونطفة أبي الذي لم أعرفه بعد يجب أن تخترق بويضتها لتعشش في جدار الرحم. سأنتظر شهوراً كثيرة، حتى يحين الوقت لأولد هناك خارج القضبان.. أموت كي أخرج من هذا المكان.. أضحي بجسدي من أجل قميص جديد..

- الجسد قميص.. هكذا كانت تقول أمي. وكنت أعلم، منذ أن تجمعت واتخذت لي مكاناً في هذا العالم المظلم وأنا أعلم أن جسدي مزدوج وروحي واحدة. لم أشعر بذلك عندما كنت أتكئ بعظامي الطرية على عظام أمي القادمة. سينفذون بي حكم الإعدام كي أصرخ هناك وأراها.. سأتعرف على أحشائها, أسبح في مياهها وأسمع دقات قلبها، وشوشة الشهيق والزفير، همس العواطف، صمت الرغبات، ضجيج الدماء. سأكون محاطاً بمزيج من الهمس والمشاعر والانفعالات والحنان. أنام إذا نامت، وأصحو إذا صحت. وسوف أكون هناك أيضاً معلقاً بحبل إلى جدار الرحم، مثل هذه الأكياس المعلقة على جدران المهاجع. جدار الرحم أيضاً بلا نافذة.. سأنتظر حتى أكمل شهوري التسعة، كي تقذفني من بين ساقيها إلى الضوء، بساقين كاملتين. سأستعيد ساقي المفقودة وأصرخ كالذئب الجائع، وأخلع قميص المحكومين بالموت لأرتدي قميص الحياة الجديدة..

- الجسد قميص. نعم، مجرد قميص، قمصان متعددة، لانهائية، والروح واحدة. ولذلك سموا انتقال الأرواح تقمصاً.. قلت لماذا لا أُجَرِّب.. لا يوجد حل آخر. الموت أفضل وسيلة للخروج إلى مكان أكثر رحابة وبهاء وإنسانية. اخلع قميصك يا رجل، واهرب من هذا المكان المظلم إلى رحاب الحرية..

- قررت أن يأكلني التراب قبل أن تأكلني الجدران، ومتّ..

- لو بقيت حياً لما رأيتني.. مجرد التفكير أن روحي ستكون موزعة بين قميصين كان يمنحني الشجاعة والدهشة.. ولكن خوفي كان شديداً على أمي الأولى التي سأترك قميصي الأول في حضنها. ستبلله بدموعها وتستنشق خيوطه التي تحولت إلى رماد.. ثم ترفعه نحو السماء بيديها المتطاولتين وتسأل الله عني:

- «أين ابني يا أرحم الراحمين.؟؟

- كانت أمي الأولى عجوزاً. انتظرتني طويلاً. وعندما رأتني أصيبت بالجلطة الدماغية وماتت بين ذراعيّ..

- كانت أمية بسيطة.. لم تتقن في حياتها سوى الحزن والخبز والدعاء والحنان.. عاشت في عصر الجنرال الكبير، ولكنها لم تكن تفرق بين كلمتي «الفريق» و»الرفيق»، بين قائد المسيرة أو الأمين العام أو القائد العام للجيش والقوات المسلحة.. ولم تكن تفهم عبارة مثل رمز الأمة العربية أو قائدنا إلى الأبد.. وكانت تتساءل: «**كيف يعني إلى الأبد!؟ مش رح يموت يعني!؟». لم تكن قد فهمت أبداً معنى الأحكام العرفية والمحاكم العسكرية. لم تقرأ الدستور ولم تستفتِ أو تنتخب يوماً. حتى إن كلمات مثل استفتاء وانتخابات وديمقراطية، لم تكن تفهم معناها. عاشت سبعين عاماً ونيفاً، بعضها في عهد الاستعمار الفرنسي وجلها في عصر العسكر وقانون الطوارئ وأكياس النايلون والبلاستيك. وماتت دون أن تتقن لفظ الاستقلال.. كلمة /دي مو قرا طية/ كانت تلفظها «مقراطية» وهو باللهجة المحلية تعني العصا الغليظة الصلبة..

- الشيء الوحيد الذي تعلمته وأتقنته في آخر عمرها كان الخوف.. الخوف من الله والخوف علينا من أولاد الحرام. ولذلك كانت كل ليلة وكل فجر تطلب من الله أن يحمينا من الحساد والظالمين. وعندما فشل خوفها في حمايتنا وضعت ابني في حضنها وأطلقت على الجنرال الكبير، لقبا صغيراً هو: **/حافظ الأسى/**. قالتها من كثرة الأسى: «**هذا مش حافظ الأسد، هذا حافظ الأسى**».. وهكذا تورطت في السياسة، دون أن تدري، حين تلاعبت باسم «القائد الرمز»..

- كان ذلك اللقب العفوي حقيقياً لدرجة أنه يلخص مرحلة كاملة من تاريخ البلاد. لقب لزعيم أساء إليها شخصياً.. أساء لحليبها وأمومتها وشعرها الأبيض. زعيم أبدي، عربي، طويل القامة، كبير الرأس. قيل إنه عندما ولد أخرج في قبضته قطعة من رحم أمه..

- زعيم شرس، مات منذ زمن بعيد ولم يمت. صوره ما زالت معلقة في كل الأماكن. تماثيله لم تتغير أماكنها, غيرت أسماء الساحات ولم تتغير. حتى بتنا لا نستطيع العيش في وطن يخلو من صوره، وبات اسمه المحفور على كل الجدران والأسوار والجسور، ما إن يتردد حتى تلتهب الأكف بالتصفيق دون إذن من أصحابها. اسم مرتبط بالخوف في عصر كامل من التصفيق المستمر والهتافات الهستيرية: تصفيق من الخوف، تصفيق مع الخوف، تصفيق للخوف.. ورغم ذلك رفضت أمي أن تصفق له. كانت يداها مشغولتين بالغسيل والجلي والعجين والطبخ والتعزيل.. رفضت كل أسمائه الحسنى وأطلقت عليه هذا اللقب، ثم أصيبت بالجلطة الدماغية وماتت..

- كنت مصراً على جعل هذا اللقب عنواناً لروايتي، وفاء لها ونكاية بالخوف. ولكن جميع المحبين والأصدقاء نصحوني أن أفكر بعنوان آخر. حتى دور النشر رفضت عنواني.. خافت هي أيضاً منه. وعندما اقترحت أن أضع، عوضاً عن اسمي، اسماً مستعاراً، رفضوا الاقتراح. كنت مقتنعاً بهذا العنوان لدرجة أني امتنعت عن نشر هذه الرواية ووضعتها في الدرج وأنا أردد: كفى كذباً. إما إن تكون شاهداً حقيقياً على عصرك وتقول ما تراه وتقتنع به، أو أن تصمت. وصمت. صمتاً طويلاً. لكن أمي التي أطلقت على الزعيم هذا اللقب وماتت منذ عشر سنوات، أطلت عليّ تلك الليلة بشعرها الأبيض، أحضرت الفجر معها. شقته بيديها الكثيرتين ودخلت عليّ فجأة، دون أن تفتح الباب، وطلبت مني تغيير هذا العنوان. قالت: /غيّر العنوان يا ربيع، واستعض عنه بثلاث نقاط على السطر../ ثم غابت..

- نهضتُ. بحثت عنها في جميع الزوايا.. فتحت جميع مسارب الضوء.. رددت اسمها.. فتشت ما بين الستائر والزجاج.. سألت القناديل الغافية فوق الرصيف.. فتحت باب غرفتها، بحثت في خزانتها المقفلة.. وقبل

أن تشرق الشمس، نفضت اللحاف جانباً وجلست إلى الطاولة..

- كانت تخاف عليّ حتى في موتها. استبدلت العنوان وحذفت لقب الزعيم أينما وجد واستعضت عنه بـ/ ... / مبهمة. ليس جبناً، لا. ولكنها فكرة رائعة أخرى من أمي التي كانت تعيش معي وتفكر معي وتحميني.. في المرة الأولى قتلتها حزناً عليّ، لكنني هذه المرة سأطيعها..

- كيف السبيل إلى نشر رواية لا تخاف من أصابع كاتبها.. كيف السبيل إلى نشر رواية لا يخاف صاحبها من أصابعه.؟ وجاء الجواب بسيطاً ذكياً حاسماً. ثلاث نقاط مضمرة على السطر، تعتبر تورية خبيثة، باطنية ومباشرة. قد تكون أكثر بذاءة من ذلك اللقب, قد تكون هجاء وقد تكون تخلصاً من الهجاء. مسبّة سوقية، أو كلمة بذيئة يمنعك الحياء من ذكرها صراحة، فتنقذك من الإحراج والمساءلة القانونية والفكرية. ومن يدري قد تنقذك من الموت أيضاً. ثم إنها كانت آخر وصية من المرحومة أمي..

- انتظرتني حتى وصلت إلى الحارة فخرجت حافية وعانقتني، ثم سقطت بين يدي. أمي التي لم ترفع السماعة يوماً وترد على الهاتف، رفعتها في ذلك اليوم بالتحديد، وعندما سمعت صوتي عرفتني. كنت قد وصلت إلى بيتي في حي الكيكية، وقررت الاتصال بأهلي، قبل حضوري، كي لا أفاجئها. كنت متأكداً بأنها لن ترفع السماعة، ولكنها رفعتها. فقلت مغيراً صوتي: يا خالة أم ربيع، أنا صديق ربيع وقد خرجت لتوي من السجن وهو سيخرج غداً، فهتفت: أنت ربيع أنت ربيع. يا حبيبي أنت.. وراحت تبكي وتضحك. عرفت صوتي وانتظرتني على باب الحارة. وعندما وصلت لاقتني حافية وعانقتني.. ثم سقطت بين يدي هاتين اللتين تكتبان الآن. عاشت بعدها سنتين قصيرتين وهي حبيسة ذلك السرير المستطيل. أصبح السرير قبراً مؤقتاً لجسدها الواهن. لم تقل بعدها كلمة واحدة كاملة.. كانت تلثغ مثل الأطفال. حتى حجمها أصبح

بحجم لعبة كبيرة. كانت ترفع يدها الميتة بيدها الحية وتبتسم لنا.. تتفقدنا فرداً فرداً، وتلمع عيناها السوداوان بدمع شحيح، وتبتسم دون أن تبتسم.. كانت تتمنى لنا أياماً أفضل وكنت أمسك وجهها الشمعي بين راحتي، أقبل جبينها البارد بشفتي الدافئتين. أفرك يديها الصفراوين، ثم أغطي شعرها الأبيض بمنديلها الأبيض وأنا أداعبها.. ماتت قطعة قطعة. وبعد سنتين، أصبحت أيقونة البيت..»

ألقوا القبض عليه ولم تصدق.. لم تفهم لماذا. مر وقت طويل حتى فهمت وصدقت، وعندما صدقت صمتت.. وضعت ابنه الصغير في حضنها لقبت القائد الملهم بلقب جديد وصمتت. كل ما كانت تحتاج إليه، في آخر العمر، هو أن تراه, أن تعرف أين ابنها. هي لا تفهم أساليبهم، وأسبابهم الأمنية، وسرية معلوماتهم الخطيرة. كانت تظن أنه مات، وكان قلبها يقول ما زال حياً. لماذا يخفون عنها الحقيقة إذاً!؟

مرت سنوات طويلة وهي تنتظر. تنتظر وهي لا تدرك أنها أم محظوظة.. ثمة أمهات ما زلن ينتظرن حتى الآن.. وثمة من متن وهن ينتظرن خبراً، إشاعة ما، كذبة.. وثمة أمهات يرفضن الموت قبل عودة أحبابهن. صمتتْ.. حرمت نفسها من المشاركة بأي فرح أو مناسبة سعيدة، وقررت أن تمشي بقية العمر حافية، حتى يخرج ابنها من السجن.. لكنها سقطت وهي تعانقه ولم تمشِ بعد ذلك أبداً. أصيبت بجلطة دماغية، وبعد سنتين من الشلل النصفي ماتت.. بللت قميصه بالدمع وماتت قبل أن يموت حافظ الأسى بسنة كاملة...

- «أنا السبب.. أنا.. كان جسدي مزدوجاً وروحي واحدة.. مشكلتي كانت تكمن في روحي التي لا تطيق قميصاً ضيقاً.. كل إنسان قادر على لمس الجسد.. حتى جسد الشيطان يمكن معرفته وتمييزه.. ولكن كيف السبيل إلى تلمّس الروح.. روح الأشياء والأحياء.. روح المرايا..

- في أي مكان من الجسد تقبع هذه الروح.؟ لم يستطع أحد منذ الخليقة أن يجد تفسيراً لها. هل هي شكل من أشكال الضوء؟ آخر شعرة هواء

بين المادة والفكرة؟ أم أن علمها عند باريها؟ هل تموت كل الأعضاء عندما تخرج الروح من الجسد؟ هل هي نسمة أم شعاع أم طاقة كهربائية غامضة؟ هل توجد في كل عضو من أعضائنا، في كل خلية من خلايانا؟ أم ترفرف حول الجسد مثل هالة!؟

- بعض البشر اعتقدوا أنها توجد في القلب فقدسوه. والبعض ظن أنها تختبئ في العينين وأنها حين تخرج تترك الأجفان مفتوحة على الحياة. والبعض ظن أنها تكمن في اللسان.. وأن اللسان يتحول عند الموت إلى آخر منصة لإطلاق الروح. الفلاسفة يظنون أنها تكمن في الألم.. وعلماء النفس يبحثون عنها تحت مخدة اللاوعي.. والشعراء يقولون إنها فراشة بلا لون، تحوم فوق المكان ولا تفارقه.. وما علاقتي أنا بالشعراء والفلاسفة وعلماء النفس؟ الروح هي الذاكرة. وإذا كنا لا نعلم أين تذهب الروح، فهل نعلم أين تذهب الذاكرة؟ أنا جربتُها. رأيتها تخرج من قميصي وتركتها تقفز وتطير. كنت صغيراً في ذلك الوقت صغيراً كحبة رمل أمام هرم خوفو.. كنت ذاكرة بشرية تمشي وتكبر وتتوارثها الأجيال. أنا وريث الذاكرة، والذاكرة تقبع في نخاع الجمجمة.. في تلك الكرة الصغيرة التي تحتوي على المعرفة.. في ذلك التجويف المخيف الذي يشبه مغارة الأسرار. نعم، مغارة عمياء لم تستطع كل فوانيس الدنيا القديمة والحديثة أن تضيء طيات سراديبها وتجاعيد صخورها. هل تسكن الروح في هذه التجاعيد الغامضة؟ داخل هذه الكرة المقدسة التي لم يعبدها أو يحترمها أحد كما يجب؟ لماذا أعطت البشرية كل هذه الأهمية للقلب؟ إنها مجرد مضخة لحمية تدق وتدق معلنة بالحركة والصوت أننا ما زلنا أحياء. لم أعاشر شعباً أعطى للرأس أهمية تذكر. أكلة لحوم البشر ومن جاء بعدهم من أنظمة متوحشة كانوا يقطعون الرؤوس ويعلقونها على الأعواد حتى تتعفن وتجف. وكانت الطيور الجارحة تتكفل بنقر العينين وإفراغ الجمجمة من تجاعيدها. الطواغيت كانوا يتفاخرون بعدد

الرؤوس التي يقطعونها.. كانوا يقيسون وجودهم بوجودها معلقة على أبواب قصورهم. قبل أن يكتشفوا النار والسفود اكتشفوا أن القوي منهم هو ذاك الذي يتربع على أكبر هرم من الجماجم. اليوم لا يتربعون على الجماجم بل يدخلون إليها. لماذا يمسحون الذاكرة؟ لماذا يهتمون كل هذا الاهتمام بذاكرتنا، أرواحنا؟ قبل أن ينتصب الإنسان على قدميه، وقبل أن يتحول إلى مثلث متساوي الساقين، كانت جميع أجزائه متساوية في انحطاطها.. حتى الرأس لم تكن في قمة الجسد بل موازية له.. وتذكرت الفراعنة والبابليين وفلاسفة اليونان والعرب.. تذكرت أبا طالب، والد علي وعم الرسول، الذي رفض أن تعلو الإستُ الرأسَ. تذكرت المعري والخيام والسهروردي وجماعة العقل الكلي وإخوان الصفا. تذكرت كل ذلك وأنا تحت، والعساكر الذين يلبسون الثياب المدنية يجلسون فوقي. يدخنون ويثرثرون.. والسيارات السوداء تعبر وتقف على ظهري: مرسيدس، بيجو ٥٠٤، جيب واز، زيل، شاحنات، مدرعات وجيش كامل من المشاة يلبس جزمة عسكرية واحدة ويدوس على أصابعي.. وكنت صامتاً شارداً أحلم أن أنزع قميصي القذر المهترئ لأرتدي قميصاً نظيفاً وجديداً..»

- **«وهل تذكرت زوجتك وابنك أيضاً؟»**

التفتَ نحوها.. لم يرها. ولم يكن متأكداً إن كانت هي من طرح هذا السؤال. كانت قد استلقت على السرير بكامل بياضها، ولكن ظلها الضبابي لا يزال يجلس هناك على الجدار.. وكان الجدار مائلاً، والأشجار كانت أيضاً تسألني هذا السؤال كلما أورقت. وكنت أصمت وأستند مع رفاقي إلى الجدار المائل، ولا أجيب على الأسئلة.. كان همنا الوحيد أن نستند إليه ونسنده بظهورنا العارية، كي لا يسقط علينا..



-٨-
العقيد الركن أبو شحاطة

- « قبل بزوغ الفجر تنفتح كوة الحديد. في البداية لا تستطيع أن ترى شيئاً سوى شاربين أسودين.. جرذ حذر تلمع عيناه في العتمة الصغيرة.. تهرب الفئران.. أغطي رأسي.. أتنفس تحت الغبار.

- شاربان كبيران برتبة رقيب أول.. المساعد نزيه كان حليقاً ونحيفاً وجميل الوجه.. لم يكن يطل من الكوة أبداً، بل يدخل من الباب مباشرة , يطل بكامل قامته وقيافته.. ما إن يتحرك المزلاج الحديدي حتى يهب الشاويش واقفاً وهو يصرخ بصوت ممطوط: /انتبيييه.. تهيأ../ ويقف الجميع استعداداً للقائه. كان الشاويش واحداً منّا. صلة الوصل بينهم وبيننا. تعينه إدارة السجن خصيصاً كي يصرخ وكي نقف نحن باستعداد عندما يصرخ.. أما مدير السجن العقيد أبو شحاطة، الذي كان رائداً ثم أصبح مقدماً ثم عقيداً ثم لا أحد يدري أين أصبح الآن.. فقد كنا نستقبله في ساحة التنفس.. نخرج كالقطيع.. نصطف بمحاذاة الجدران وننتظر قدومه.. كان يأتي دائماً وهو ينتعل شحاطة جلدية أنيقة وثياباً مدنية بسيطة. وكان يحمل بيده ليس مسدساً ولا بندقية روسية، إنما عصا خشبية قصيرة مطلية بالورنيش. بنادق الكلاشنكوف كان يحملها الحراس الذين يقفون على الأسطح، مطوقين الساحة المسقوفة بالأسلاك الشائكة المضادة حتى للطيور.. يتقدم المدير ببطء. يحرك عصاه ببطء.. يتفقد رؤوسنا ببطء ونحن نقف باستعداد كالمسامير أمام الجدار الأصم

مطأطئي الرؤوس. يطلب منا أخيراً أن ننظر إليه.. كان يخاف على وجوهنا أن تتغير أو تتبدل. ولست أدري لماذا كنت متأكداً أن هذه العصا المارشالية المحروقة بإتقان هي من صُنع أحد الموقوفين.. راح يسألنا عن أحوالنا. ورحنا نطالب بالكتب والأقلام والدفاتر، بتحسين الطعام ومدة الزيارة والتنفس. كانت الزيارة كل ثلاثة أشهر. وكانت تفصل بيننا وبين الأهل طبقتان من شباك الحديد، بينهما ممر واسع، يقف فيه حراس من الشرطة العسكرية متحفزين، يلبسون الجزم السوداء والقبعات الحمر التي تذكرك بعلب الكبريت.. وكنت أمد يدي حتى الكتف، وبصعوبة أستطيع أن ألمس أصبع ابني الذي يمد يده أيضاً على طولها، كي يلمس أصابعي.. ولست أدري لماذا رفعت يدي وسألت العقيد فجأة: حضرتك عندك أولاد.؟ ابتسم العقيد.. ابتسم وقال: ولماذا تسأل؟ قلت: منذ أن ولد ابني لم أضمه إلى صدري أو أشم رائحته.. هل تسمح لنا أن نشم رائحة أبنائنا ولو مرة واحدة.؟ تأثر العقيد على ما يبدو، أستطيع أن أؤكد بأنه تأثر جداً، لأنه دون أن يبتسم أمر بأن تصبح زياراتنا في الغرف..

- ولست أدري لماذا هجم عساكره عليّ وبطحوني أرضاً.. ولست أذكر كيف أدخلوا دولاب الكاوتشوك في رأسي وساقي وراحوا يجلدون قدمي بأسلاك الكهرباء.. وقبل أن أصرخ من الألم، سمعت صوت امرأة قادماً من زقاق الضوء. امرأة تكاد تخترق ثيابها.. ثياب طويلة كنخلة، كظل يتسلق الجدار وامرأة قصيرة كحجر، تشبه أمي.. صادقة كالتجاعيد دافئة النظرة حنونة.. ثياب من رمل وغبار وامرأة بيضاء سمراء حزينة سعيدة مفاجئة هادئة صاخبة بسيطة مركّبة غامضة جلية متجلية، بلا لون ولا شكل.. شعر طويل عينان واسعتان، ليل وقمران في وجه شاحب كالفجر تحت القنطرة.. وكدت أنظر إليها، أستنجد بها، لكنهم حجبوا الرؤية عني. أغمضتُ عيني عليها.. صرختْ من بعيد بصوتها الممطوط:/انتبيييه/ وانتبهت. نسيت الشرايين والأعصاب التي قُطعت.. نسيت العظام

التي سُحنت، وتوقفت عن الصراخ من أجلها. خطفتني كالزوبعة من بين الأسلاك.. أطلق الحراس النار على السماء وتشبثوا بساقي فتركتها لهم، وحلقت معها.. طلقات خطاطة تتجاوز صدرها وتستقر في ركبتي اليمنى.. قلت: ماذا ترين؟ وتشبثُ بردائها.

- قالت: الأرض تميل.. وطوقتني بساقيها كي لا أسقط.

- قلت: إياكِ أن تتركيني.

- قالت: المسافة بيننا أنملتان.

- قلت: بيني وبينك جدار واسع جداً.

- قالت: أسمعك كيف تتنفس تحت اللحاف.

- قلت: بيننا رمل وأشواك..

- قالت: بيننا بضع أميال فقط. يا إلهي، قلبكَ ينبض في وسادتي كا لجنين.

- وقالت: سأعطيك سريراً ولحافاً نظيفاً ودفاتر.

- قلت: أصابعك باردة كالحديد.

- قالت: كفي أصبح عشاً لخمسة زغاليل.

- وألتفت إليها دون احتراس. كان رداؤها موشحاً بالغيوم منسجماً مع الريح. وفركت عيني وكدت أنزلق من بين ساقيها.. وسحبت يدي لكنها تلقفتني وسألت: ماذا جرى؟ دفعتُها عني. عانقتني، ودفعتها.

- قالت: الرمل يرتفع إلينا.

- قلت: إياكِ أن تقفزي.. ونظرت إليها..

- وراحت الأرض تقترب مني كحجر كبير. ولم تكن موجودة فوق راحتي. تنفست من كتفي. أردت أن أقف على قدمي ولكني سقطت. حاولت أن أستعيد صوري.. فتحت عيني من جديد. كان الذباب يغطي

وجهي.. وكان الباب موارباً وقصعة لبن ورغيف من الخبز كانت أمامي، وأحذية عسكرية تحيط بي. وصرخ صوت: **اشرب. اشرب.** وحاولت أن أشرب. كانت يداي مقيدتين خلف ظهري والدم ينزف من شفتي وساقي ملفوفة بالقماش السميك. **اشرب اشرب بشفتيك.** انحنيت على العطش.. صار اللبن بلون الطين. ركعت على ركبتي اليسرى.. صار بلون الخشب المحروق.. لامست الإناء بشفتي.. أصبح اللبن كومة من ذباب.. ذباب أسود يغطي عورة امرأة ناضجة..

- تركت ركبتين كاملتين على فراشها، وتركت يديّ خلف ظهري. وكي لا تتبعني، جعلت الأرض تقترب من وجهي، وأطبقت جفنيّ على البكاء..

- وهأنذا وحدي. تحت المطر. فوق الأرصفة. أمشي وحيداً بين عكازين، والناس على الرصيف الآخر يتوقفون ويشيرون إلي بأشيائهم: ها هو ذا. انظروا إليه.. المسكين.. يقف وحيداً في هذا العالم على قدم واحدة. وهأنذا أذوب كتمثال من الملح.. مظلتي غيوم خرقاء خلّعتها الريح، ورأسي كومة شوك تتدحرج في الطرقات.. تتحرش بالمارة. تعرقل السير مثل كلب شارد.. أرشق الأبواب بماء أصابعي.. تحفر أظافري على زجاج نافذة ترتدي قميص النوم. أصفّق.. تتشقق الغيوم.. تبصق الشمسُ الظلالَ على البنايات والشوارع، ثم تبلعها. أصفق.. تسقط أزرار الفساتين في برك الماء. ومن خلف النافذة يطل شاربان فوقهما، هذه المرة، حطة وعقال.. أغضب أصرخ أمزق السماء نتفاً وأنفخ عليها. تطير أطير أركض خلفها، أتعثر بالمتاجر والأشجار.. تسقط الأرصفة على وجهي.. وأفتح عيني من جديد. إنه الغروب يدق باب العتمة بعقب حذائه. ينفتح الباب.. تدخل أسراب الذباب.. تنقط الأحرف.. تحجب الألوان.. تحتل السقف وتتكوم على كبل الكهرباء.. تتدلى من الغيم حبلا أسود. أمد ذراعي إليها مودعاً. وقبل أن أنام أسأل: كم سنة؟ يصرخ الصوت: **اشرب اشرب..** ولا أتمالك نفسي.. أطبق جفني وأنا خائف، على لساني، أن يتدلى من السرير..»

-٩-

الذبّان

- «صيف صحراوي وحرارة خانقة والذباب يملأ المكان، والشمس ترصف مرايا بريقها فوق الجدران، تقطّع الفضاء المغلق إلى مربعات ودوائر ومثلثات متداخلة.. مشهد موّار ومتنوع لدرجة التشتت: مجموعة هائلة من المثقفين في مكان بليد ضيق الأفق، تستخف به أشعة الشمس وتعربد فيه. كل اثنين أو ثلاثة يقومون بعمل يبدو للوهلة الأولى منعزلاً عن الآخر. أحدهم يقوم بحك حبات الزيتون على الأرض أو على الجدران، ليصنع سبحة أو عقداً. أحدهم يجدل خيوطاً أو يعالج قطعة عظم نظفها وخبأها من غداء البارحة ليصنع منها قلماً.. قلم من العظم وأوراق من علب السجائر. كانت الأوراق والأقلام ممنوعة. صنعنا أقلاماً من عظام القفص الصدري وأوراقاً من «سلفان» علب السجائر. كنا نقوم بصقلها، لتصبح صفحات قابلة للكتابة بواسطة الضغط. وكنا نكتب عليها الأشعار والقصص والمقالات.. أحدهم يحفّ حجراً بحجر، لا ليشعل ناراً بل ليصقل أحدها بواسطة الآخر.. أحدهم يجلس ساهماً جامداً، ينظر في نقطة واحدة. زوجان أو أكثر يلعبان الشطرنج، المصنوع محلياً من العجين أو الخشب، على قطعة من قماش مخططة بالطباشير. أربعة أو خمسة أشخاص يتفرجون على اللعب، أحدهم يذهب باتجاه المرحاض وآخر يعود منه. اثنان مستلقيان يناقشان بصوت منخفض مفهوم الوطنية والدكتاتورية. أحدهم يحضن ركبتيه ويراقب الضوء عبر النافذة.. أحدهم

يتناوب مع جاره على سيجارة ناعورة.. أحدهم يرتب بطانياته.. أحدهم يدلك ظهر زميله.. أحدهم ينظف أظافر قدميه ويغني.. والباقون يتحركون كالمجانين جيئة وذهاباً والهدف الوحيد لأفعالهم، كان الذبان..

- الأيدي تطرد الذباب بشكل لا إرادي، لكن المدخنين، جميع المدخنين كانوا يطاردون الذباب عن قصد. لم يكن لديهم أدوات لاصطياده، فاضطروا لاستخدام الأيدي والشحاطات والخرق..

- أعلم أن الحديث عن الذبان والشحاطات والخرق لا يليق برواية محترمة أو ذاكرة وقورة. لكن الذباب أصبح في حياتنا بطلاً وقضية، حشرت في ذاكرتنا رغماً عنا، وتحولت تلك القضية إلى مشهد سريالي مأساوي..

- عندما كنا في الزنازين، ورغم أن الظروف كانت عصيبة واستثنائية: تحقيق وتعذيب وتوتر ومواجهة وصراع إرادات وصراخ وخوف واعترافات.. كان التدخين يسبب لنا مشكلة حقيقية، غير أن حلها كان بسيطاً جدا. أرادوها وسيلة لإذلالنا والضغط علينا، إذن، فلنتوقف عن التدخين وينتهي الأمر. كانت تلك المرة الأولى التي تمكنت فيها من وقف التدخين، لكنني، بعد انتهاء التحقيق، وعندما اجتمعنا في مهجع واحد، أصبحت سيجارة الناعورة تساوي جزءاً من الحرية والكرامة..

- كانت الزيارات ممنوعة، ولم نكن نملك أي حق من حقوقنا البشرية أو حتى الحيوانية. لم نكن أصلاً نملك نقوداً لشراء ما يكفينا من حقوق. كنا نملك ٤٣ علبة ناعورة و٢٠ علبة حمرا فقط. وكان عددنا ثلاثة وسبعون نفراً. عدد المدخنين منهم يتجاوز الثلثين. أما الذبان فقد كان أسراباً متعاضدة تحجب، في الليل، الجدران والسقف والزوايا، وتحجب في النهار الرؤية والتنفس وضوء الشمس القادم من النوافذ الضيقة المستطيلة.. ينهض الشاويش كل ثلاثة أيام في العاشرة صباحاً ويبدأ بتوزيع حصص السجائر المخصصة للمدخنين: ٩ سجائر حمراء و١٨ سيجارة ناعورة. أي بمعدل ٣ سجائر حمراء و ٦ سجائر ناعورة في اليوم.. ولكل حسب رغبته. كان

لدينا فائض في الذبان وندرة في السجائر، ولذلك اقترح علينا الدكتور نادر، وقد كان أستاذاً لمادة التجارة والاقتصاد في جامعة تشرين، وبعد شرح مسهب لمعنى المقايضة وفوائدها ودورها التاريخي في مسيرة الاقتصاد، اقترح أن نقايض الذبان بالسجائر. لم يكن هو من المدخنين، سمّاها لعبة وقبلنا أن نلعبها. وبدأت المنافسة: كل من يقتل خمسين ذبابة يحصل على سيجارة ناعورة، وكل من يقتل سبعين، يحصل على سيجارة حمراء..

- كنا قطيعاً غير متجانس من المثقفين وأشباه المثقفين والبسطاء. وكان الصمت الجنائزي طقساً لا تعلم من اخترعه أو فرضه.. لا صوت فيه غير صوت الحراس ووقع أحذيتهم الثقيلة. عنابر لا أحد يعلم كم عددها، تحوي ما يزيد على عشرة آلاف روح بشرية، لا تسمع لها حفيفاً أو نفساً أو نأمة. كنا نشم الروائح الكريهة التي تملأ المكان. رائحة سجن تدمر التي لا تنسى.. رائحة الناس المحترمين الممزوجة بالعرق والعفونة والأوساخ. وكنا نسمع بين الحين والآخر دربكة أقدام تشبه صوت قطيع من الثيران المطاردة، ولم نكن نشعر بعدها حتى بحركة بسيطة تحدث هنا أو هناك.. وفي الليل كان لا بد أن نسمع بين حين وآخر، أصوات عواء الذئاب التي تذكّرنا بوجودها:

- «قيـ...ف..قيـ...ف..»

- كان ذلك الطقس يعني الكثير لهم، أما نحن فقد تعودنا ولم يعد هذا يعني لنا شيئاً.. ما لم نتعود عليه أبداً هو ما كان يحدث عند الهزيع الأخير من كل ليلة..

- كان يسود نباح الكلاب البعيدة.. كلاب الفيافي الواسعة ونداء الصراصير، تقطعه قبل بزوغ الفجر، جلبة غامضة وصليل أقفال وأبواب حديد تفتح وتغلق بسرعة، وقراءة أسماء ما، يتلوها صمت طويل مريب، ما تلبث أن تخترقه حناجر المحكومين بالإعدام من الإخوان المسلمين

وغيرهم، هاتفة: الله أكبر.. الله أكبر.. ثم يعمّ سكون الموت الجليل، ممزوجاً بالقلق والغضب والعجز. كنا نعرف عدد المحكومين بالإعدام من تكبيراتهم.. وقيل إن أصواتهم كانت تصل إلى كل أرجاء البلاد.. لكننا في الفترة الأخيرة لم نعد نسمع حتى هذا التكبير.. باتوا يلصقون أفواه المحكومين بالإعدام قبل التنفيذ، كي لا نسمع أصواتهم..

- لم يكن أحد منا محكوماً بالإعدام. كنا نحن سكان المهجع ٦ على ما أذكر، مدللين ومميزين. نحن معارضة وطنية وهم شياطين، ولذلك كانوا يكتفون بالدوس على رؤوسنا فقط دون قطعها.. وكنا نعلم أن الطريق طويلة والمصير مفتوح على المجهول. وكي لا نشعر بالخواء ونفقد الأمل سريعاً، طالبنا الإدارة بتزويدنا بالكتب. وعندما رُفض طلبنا خطرت لنا فكرة طريفة: أن نعتمد على أنفسنا، ويفرغ كل منا ما في جعبته من معرفة وذكريات؟ كنا باقة من الاختصاصات المتنوعة الغنية: كتاب وصحفيون وأطباء ومحامون وعمال وفلاحون وضباط ومهندسو مدن وبواخر وكهرباء، أساتذة جامعات واقتصاديون ومبدعون في المسرح والسينما والأدب والرسم والنحت.. وبدأنا نجتمع كل ليلة بعد العشاء مثل كومة من الثياب حول واحد منا، كي نستمع إليه وهو يحدثنا في اختصاصه، أو يستعيد شفوياً، كتاباً جميلاً أو رواية قرأها ذات يوم. وما أكثر الروايات والقصص التي اخترعناها وأعدنا تأليفها من جديد. روايات عربية وعالمية ارتجلناها بشكل جماعي، فاختلط فيها الخيال بالحقيقة وتبدلت شخوصها وأحداثها حتى أصبحت روايات من الأدب الغرائبي. ثم اقتربنا أكثر فأكثر من عواطفنا وذكرياتنا الخاصة الحميمية، وبدأنا نتحدث عن تجاربنا مع المرأة والحب والأمكنة.. كان الحديث ممنوعاً بعد الثامنة مساء، وكنا مضطرين للتحدث همساً تقريباً. وأذكر أن أحد الحراس كان يتنصت علينا من الفتحة السقفية، عندما كنت أقص أول تجربة لي في الحب، وأنا في الصف الخامس الابتدائي. وما إن سلط الحارس ضوء فانوسه علينا حتى صمت الجميع، وصرخ الشاويش:

« انتبييييه. تهيأ.» ووقفنا..

- مين ها الجحش يلي كان طالع صوتو.؟

- ورغم أنني لم أكن جحشاً، رفعت يدي بعد تردد, فأمرني بالوقوف تحت الكوة على قدم واحدة..

- شو! عاملّي حكواتي!!

- صمتُّ.. أمرني أن أتابع الحكاية وأنا أقف تحت الكوة في مشهد مسرحي، على قدم واحدة، وفانوسه يضيء رأسي وكتفي.. وكان عليّ أن أقرر: إما إن أتابع الحكاية الغنية بالأحداث، أو أرفض الأمر وأنام ليلتي في الزنزانة المغمورة بماء المراحيض عقوبة لي. وما لبثت أن ابتسمت واخترت متابعة الحكاية. ولكنني اختلقت حوادث مروعة، سرعان ما أدت إلى قتل الحبيبة التي لم تزل في الصف الرابع الابتدائي، كي أنهي حكايتي الغبية بأسرع وقت ممكن..»

فنجان القهوة أصبح بارداً. وصحن السجائر ممتلئاً بأعقابها. ثمة ظلال كانت تقف بينهما. وجهان جانبيان متقابلان، يلقي كل منهما بظله على الآخر. كل منهما يخبئ نصفه المضيء عن الآخر. نافذتان في منتصف العمر يقف بينهما شريط عريض من العتمة، وجدار رابع وهمي بدأ يتقشّر..

كان يتجنب الخوض في التفاصيل التي تهمها ويسهب في تفاصيل أخرى لا تعنيها. سألته أكثر من مرة عنها فهرب إلى الخيال، كما لو أنها تعيش هناك.. تسكن في المخيلة أو تجاورها.. كانت تعلم أنه متزوج، وله طفل أصبح شاباً بشاريين أسودين، اسمه أنس. تعلم متى وكيف تزوج ولماذا. هي أيضاً لها طفل أصبح شاباً بشاريين أسودين، واسمه أيضاً أنس.. ما كان يقلقها هو: هي. هل يعقل أنه نسيها تماماً؟

وسألها أكثر من مرة عن زوجها، فتحدثت عن نفسها وأسهبت في وصف معاناتها، كما لو أنه المسؤول عنها. وكان حديث كل منهما لا يروق للآخر لكنه

معني به، ويريد المزيد.. نسي القهوة وملأ المكان بأعقاب السجائر.. ونسيت سبب لقائهما. صارت الذاكرة أكبر من المكان والزمان والجسد. وشعرت أنها بحاجة ماسة لتقصير المسافة بينها وبين هذا الرجل، فقررت أن تهزمه في بيتها.. ولم يكن بحاجة للهزيمة أو الانتصار.. كان يائساً يبحث عن صخرة كي يحطم عليها ما تبقى من ساعديه. ولم تدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان..

- «هذا البلد الشاسع قبر يتسع لأكثر من جسدين صغيرين»، **هكذا كان زوجي يقول. وأتذكره، ولكنني من كثرة ما فعلت نسيت تفاصيله. أصبح مجرد شخص، أو شخص مجرد في ثياب رجل، اسمه أبو أنس.**

- **وأتذكر ما قاله لي عندما منعوه من الصعود إلى الخشبة:** «الضوء مخنث والعتمة تجاوزت سن اليأس». **كان ممثلاً مسرحياً، يتقن الحياة فقط، فوق الخشبة. صار يكتب الشعر، ويظن أن العتمة ستصاب بالعقم ذات يوم، ثم تهرم وتموت بالسكتة القلبية، أو سرطان الرئة. كان يظن أن هذه العتمة ستهرب، هكذا، ببساطة، عندما يريد أو يرغب.. وكنت أنظر إليه ساخرة، كما أفعل الآن تماماً، أتكور على نفسي وأهمس: سن اليأس؟ وكان الخوف يجد لنفسه مكاناً مريحاً بيننا، كلما ساد الصمت وتأنق الارتياب.. وكثيراً ما كان يسود ويتأنق.. وكنا نتوقف فجأة عن الشجار ويدور كل منا داخل الحلبة حول نفسه وحول الآخر، ويخيل لكلينا أن الأخر يحمل في يده سكيناً أو مقلاة. ويسود الصمت. صمت طويل مأساوي.. وسرعان ما نكتشف حقيقة المعركة الزائفة بين المرأة المقموعة والرجل المطارد..**

- عندما يدخل القمع من الباب، يهرب الحب من النافذة..

وتأخذه الحماسة ويهتف في وجهي صارخاً:

- سيأتي الضوء، سيأتي. هذا الكون، كل هذا الكون الواسع العملاق، الذي نراه والذي لا نراه، يقوم على تناغم العتمة والضوء. سيأتي الضوء، حتماً، ليس إلى خشبة المسرح فقط، بل إلى الشوارع والحدائق والساحات..

- كان يقول ذلك وهو يجلس في العتمة وينتظر الضوء.. يخترع عتمة ويغطّ فيها. يسلط على نفسه بقعة ضوء ويقرأ في العتمة.. يكتب في العتمة.. يحلم يأمل يتأمل وينتظر.. ساعاتٌ، أيامٌ طويلة، سنواتٌ تمضي دون أن يفعل شيئاً سوى الانتظار: الباب مقفل والستائر السميكة مسدلة على النوافذ، وهو يجلس وحيداً صامتاً كما لو أنه في حالة حداد روحي. كانت العتمة تهيجه، والضوء بعيد المنال. وأصبحت أخاف عليه من جرس الباب، من اليوم القادم، من الجيران والأصدقاء، من المخفر والغرباء والإسعاف والشارع العام والإعلام ومؤسسات الدولة الطائشة والدوائر الرسمية التي يلتهمها الفساد والأوراق والطوابع المالية.. كنت أخاف على الحليب والدفاتر وألعاب الأطفال والخبز. أخاف من أجله, أخاف منه, أخاف عليه. وكنت كلما سنحت لي الفرصة، أكرهه في السر.. أحقد عليه بجوار المخدة، تحت اللحاف.. أحتقره دون أن ينتبه.. ثم أشتهيه بكل ما تملكه أحشاء المرأة من عطش وجوع ورغبات. أبعد الكتب والأوراق عن صدره وأرتمي بين ساقيه وأنا أتساءل: لماذا ابتليت بمثل هذا المثقف المزاجي الغيور الوقور الأناني العنيد الساخر المهموم الجلف الصامت المكسور..؟»

نظرتْ إليه. كادت تدخل أنفها في رقبته. هل كان معنياً بما تقول؟ كانت متأكدة أنه يستمع إليها. وانتبهت إلى تلك الندبة الغامضة فوق جبينه, كان يغطيها بأصابعه ويحدق أمامه مباشرة. «**يا الهي.! إنها الندبة القديمة، ندبة الرجل..**» لماذا لم ترها قبل الآن. وكي لا يصبح وقع كلامها ثقيلاً عليه، رفعت قدميها عن الأرض.. تربعت على حافة السرير.. استدارت.. أسندت ظهرها إلى ظهره.. ألقت رأسها على كتفه.. وضعت أذنها على أذنه وهمست:

- «كان رجلاً في صمته ووقاره ونزواته، وكان امرأة في غيرته ومزاجه وعناده. كان شرقياً وغربياً.. متحضراً وبدوياً.. ذكراً وأنثى, وقبل كل شيء كان جمرة في السرير..

- خدعني. لم أكن أعلم أنه كان متخفياً في تلك المسافة التي تفصل بين القرد والإنسان. بين الحياة والموت. بين العتمة والضوء. بين السلطة والمعارضة.. لم أكن أعلم أنه كان مطلوباً تطارده الهواجس والغرائز والأشباح. ليس الذنب ذنب أستاذه الروسي. لو أنهم فعلوا به كما فعل ستالين بالمخرج الروسي ميرخولد، لنسيته منذ زمن بعيد.. ميرخولد كان عبقرياً. ذنبه الوحيد أنه كان يملك عقلاً إبداعياً متمرداً، و(ذو العقل يشقى)، ولكنه يبقى أكثر من جلاديه.. أخذوه. أخذوه كله.. أدخلوه إلى الموت حياً، وما عدت أراه إلا في الأحلام. كنت يومها أضيء فانوساً كي أرى الظلام.. كنت أحلم أن أعرف عنه شيئاً. مر وقت طويل وأنا أحلم. كان من حقي أن أعرف، ليس من أجلي فقط وإنما من أجل ابني الصغير أنس. وكنت، كلما سمعت عنه خبراً مفرحاً، أحلّق وأطير طويلاً على أجنحة الأمل، ولا أجد إلا مكاناً واحداً أحطّ فيه، هو فروع الأمن المسيّجة بالخرسانة العالية والأسلاك الشائكة والبنادق التي لا تذكرنا بالاحتلال الفرنسي بل بما هو أسوأ من الاحتلال الاستيطاني..

- في البدء أخذوا خصلة من شعري ولم أخجل. قلت لا بأس ليأخذوها. وقالوا لي سيخرج قريباً. ثم أخذوا قطعة من لحم كتفي وقالوا: في ذكرى الحركة التصحيحية سيصدر سيادة الرئيس عفواً وسيتم الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين. ثم قضموا قطعة من صدري وقالوا: ستحتفلين معه بعيد رأس السنة القادمة.. ودخل رأس السنة عليّ. كم مرة دخل رأس السنة، ولم يخرج.! كم مرة جهزت المكان من أجله وصدقت ما يقولون.!

- كم مرة كنت أرتب مائدة الجسد وأجلس في الحمام وحيدة عارية، ألمّع بشرتي كي يمشي عليها. أتفقد أغصاني الذابلة وأداعب صدري بالماء الساخن، كي يجدني دافئة لدنة. كنت ألهث وأرتجّ والنهنهة

تكاد تطفح من النافذة المغلقة والصرخة تتقطع أنفاسها وتشهق معها الروح. تجمح حيناً وأكبحها بلجام الكف.. أطبق شفتيّ الضارعتين وتخذلهما الآه.. يرتعش الوبر الأبيض فوق المسامات. تنتعظ البراعم. تفتح الشهوة أسنانها للندى. يفوح البخار البنفسجي من الخلايا. تغمض الرعشة عينيها. يخرج النحل من ثقبه اللزج.. ويسيل الشهد.!

- لن أخجل، لن أرتبك مثل العذارى. لن أتوارى خلف الستارة وأعض شفتي.. كان رأس السنة حليقاً ملتهباً، يعتمر قبعة وردية: عينه البرّاقة ترمقني، والمرآة تطفح برغوة الياسمين. أشهق، والريح تغني لي وتشهق.. تركته يفتح الباب ويدخل، والثلج يتربع فوق منكبيه.. كم مرة تركته يقف في الباب منتصباً ويحدق بي، ثم يحرث سريري بركبتيه العاريتين.!! لم أنتبه أين استقرت يداه أخيراً، فوق خصري أم على ضلع النافذة. حول جيدي أم فوق حبيبات الماء؟ لم أنتبه. هل كان يحمل مهمازاً، أم عكازاً، أم شمعداناً.؟ لم أنتبه.. كان رأس السنة حليقاً ملتهباً يعتمر قبعة وردية. وكنت في الحمام وحيدة عارية..

- وتكالبت أجهزة الأمن عليّ. أرادوا أن يستولوا على جسدي قطعة قطعة. وقلت: لا.. قالوا: نفرج عنه بشرط أن تتعاملي معنا. قالوها، وقلت مرة أخرى: لا.. ثم قبلت المقايضة أخيراً.. ومن يستطيع أن يرفض؟ قلت أتعامل معهم مقابل الخبز والحليب والدفاتر. قالوا تصبحين حليفة للجيش والشرطة العسكرية وقوى الأمن.. تصبحين حليفة للأركان.. لست الوحيدة التي تهرب كي تعيش. عهّروا البلاد وأصبح الجميع حلفاءً وحليفات: الطالب والأستاذ والموظف والعسكري والسمكري والقاضي والمحامي والدكنجي والدبلوماسي والشيخ والمتعهد والطبيب والرقيب والمهرّب والشاعر والنجم والمقامر والعتال والحلاب والزبال والكاتب والنائب والشحاذ والأميّ والحاجب والمدير والوزير والمسافر والمقيم والمهاجر والتاجر والسمسار والأخ والأخت.. قبلت

المقايضة. وفاحت مني رائحة ضباط الأمن والمرافقين الشخصيين. وعبث بمؤخرتي عدد كبير من الرقباء والمساعدين وأصحاب القرار والسماسرة والمسؤولين.. أصبح الرجال بالنسبة لي مجرد محطات للتزود بالوقود. وأصبحت النساء باقات ورد ومزهريات وهدايا في «فاترينة» الاتحاد النسائي وتحرر المرأة السورية.. وتحولت أنا أيضاً إلى عاهرة محترمة، كما أرادوا.. أو بالأحرى، تحولت إلى بائعة هوى مقابل الهواء..

- أصبح جسدي مثل كيس من الرمل، مليء بآلاف الثقوب..»

كان يصغي إليها بعينين شبه مغمضتين. أصبحت الندبة واضحة كالوشم فوق جبينه. وقف وانحنى دون إرادة منه، وصفق لها.. صفق بحماسة كما لو أنه يصفق لزعيم. كان يعلم أنها تكذب.. كان متأكداً من ذلك. فالمرأة المحترمة لا تستطيع أن تكون داعرة بنصفيها معاً. النصف العلوي أخطر من السفلي.

- وهل يستطيع نظام ما إن يعهّر بلداً بكامله.!؟

- الحقد أخطر من العهر والكذب أخطر من العهر والغدر أخطر من العهر.. والفساد هو الفساد.. أما الحرية فلم تكن بعد على الأبواب..

كانت ممتلئة به، عاتبة عليه، حاقدة، محطمة. تركها في ذروة الشوق والخصب والشباب. ترك الصدق واختار الكذب والمداورة.. ترك العذوبة واختار العذاب. ترك الحضن الدافئ واختار الهاوية.. ترك السعادة والاستقرار واختار أن يكون شقياً مطارداً مطلوباً من جميع الأجهزة. وكانت تغار عليه من الكتب والأوراق. تغار من الثقافة والفكر والصحافة والحوار. وكانت تتساءل: لماذا أنا؟ هل كتب عليّ وحدي أن أدفع الثمن؟ أن أحمل عبئاً عجزت عنه الأجيال منذ عقود!؟ ظنت أنها ستصنع منه مجرد رجل. رجل يقف على الخشبة، يحمل الخشبة بالطول ويمشي بجوار الجدار وهو يردد: سترك يا رب.. ولكنه صنع منها مجرد امرأة، لها ثديان كبيران وشعر طويل ودموع غزيرة لا تنضب.

ويتذكرها كيف كانت. يتذكر شبابها وجمالها..

- « كانت نافورة الماء التي لا تمل من الاستحمام في حوض البحيرة، تتوقف، هكذا فجأة، عندما تراها. ترفع قبعتها المائية في الهواء وتجمد مأخوذة بشعرها المتوهج ووقع كعبيها فوق أرض الساحة المبلطة بحجارة البازلت..

- كانت تدوزن نبض القلوب على إيقاع ردفيها. وكانت الأحداق الشابة تتسع وهي ترافقها عندما تمر قامتها من هناك، وكانت العيون الحالمة تستحضرها بعد غيابها. قبّلوها ولامسوا بشرتها في أحلامهم.. وجرت معارك شرسة في الخفاء من أجل ركبتيها.. كانت كل النساء.. شجرة النارنج والكباد.. لها تاريخ عريق، ومستقبل مشرق. كتب فيها نزار قباني قصائد الياسمين واللوز، وفرش أهدابه على ثراها. رسمها فاتح المدرس بالمشارط والأصابع. استبطنها أدونيس من القهوة المرة والهال. عراها علي فرزات على صفحات المجلات والجرائد. خانها الماغوط علانية في المقاهي وفوق الأرصفة، واغتصبها الجنرالات أكثر من مرة.. كم شاعرٍ قتلتْ! وكم مفكرٍ شردتْ! وكم عاشقٍ خذلتْ.! أصبح لحمها رابيةً للدبابات. وأصبحت سراويلها الملونة راياتٍ تخفق فوق القصور والمؤسسات الرسمية وفروع الأمن..»

- **«لم يكن يعرفني من قبل. وعندما التقى بي سألني باختصار مدهش: أين تكمن أنوثتك؟ فارتعشت. لم يسبق أن سألني أحد مثل هذا السؤال. شعرت وكأن ملقطاً خشبياً ضغط بقوة على حلمتيّ فابتسمت. ورغم أن فمي كان مطبقاً بإحكام، قال لي: أحسنت، ثم لمسني كما يلمس الطفل لحم أمه..»**

- «يجدر بي أن أستسلم للخوف. أن أخاف من الاستسلام. أن أعتذر من هذه الأرض التي دست عليها طويلاً دون رحمة أو شفقة. أن أطالب بذاكرتي العتيقة المستلبة..

- كنت أظن إننا إنما نمشي كي نمحو آثار الخطوات التي خلّفها من سبقونا،

لكن تبين لي أننا نقتفي آثارهم، وإن كثرة احتكاك نعالنا بالأرصفة لا تؤدي إلا إلى شيء واحد هو تآكلها، وإنه يجب علينا أن نقيس أعمارنا بعدد الخطوات وليس بعدد الأحذية.. يجدر بي أن أطلب الصفح والمغفرة من الكائنات، من جميع الحدائق والشوارع والأرصفة التي كنت أصفعها بحذائي دون أن أدري. يجدر بي أن أعتذر من تلك المخلوقات التي التقيتها كي أسيء إليها فقط، وتسيء إلي.. يجدر بي أن أقبل النصح والمودة. أن أعتذر من الشمس المشرقة والشمس المحرقة والشمس الغاربة، وأطلب الصفح من كل شجرة وزهرة ودودة ربيع.. من الحطب والبراعم والأوراق الخضراء واليابسة والمتعفنة.. من السابق والحاضر واللاحق.. من الجغرافيا والديموغرافيا وعلم الجمال والميثولوجيا والفلكلور والسينما والمسرح.. من الوحوش الضارية والأرانب الخائفة والغزلان الغافلة الصامتة.. من الطحالب واليرقات والعناكب والفراشات وطوابير النمل والخنافس والنساء اللواتي تغزلن بعينيّ، ولم أنتبه.. يجدر بي أن أعتذر من قلبي الذي طالما رسب في الحب وفي الكره وأساء دون قصد، وفشل في الصمت والبوح واختيار الأصدقاء..

- كان يمكن أن نلتقي يا حبيبتي في مكان أكثر اتساعاً وارتفاعاً وإنسانية. مكان يستوعب كل المشاكسين والمتسكعين والصعاليك والخطاة والمارقين. يستوعب كل العقلاء والمجانين والمجازفين والمؤمنين والكفرة. مكان لا يكون فيه مستأجر لوطن، أو غريب فيه، أو عابر سبيل أو صعلوك.. كان يمكن أن نلتقي بعد حين.. بعد تراب أو أكثر.. بعد ضباب أو عجاج أو دخان أو أكثر.. بعد خيمة البدو ومرعى القطيع ومواخير القوادين والزرائب. لو كانت أمي تستطيع أن تعيد التجربة، لخرجت من رحمها مباشرة إلى خشبة مالحة تحرقها الشمس، وتركت الموج يقودني حيث يشاء. ولكنها ماتت قبل الأوان.. أطلقت على الأسد لقباً يليق به، ثم ماتت بالجلطة الدماغية..»

-١٠-

زوج وزوجة

كان يعلم أنها ممتلئة به، عاتبة عليه، حاقدة.. ولها الحق. فقد كان الوقت عصيباً والمكان مفخخاً بالحواجز، والأوطان تتحول بالتدريج إلى مزارع قابلة للبيع والتوريث. أنظمة الاستبداد لا تنجب إلا الجبناء والعاهرات والقوادين الذين يقودون ليس امرأة بل وطناً.. تجار الموز يتحالفون مع القرود ضد الغابات، وأكلة الكافيار لا يخطر ببالهم ولا يتساءلون أبداً كم سمكة يلتهمون في اللقمة الواحدة..

كانت الأشباح في الهزيع الأخير من هذا القرن، قد ولدت من عنق عتمة لا ترحم، مثقلة بالديناميت والقنابل والطائفية.. ترعرعت في أقبية السجون.. ولدت بين قضبانها، تناسخت كالخفافيش فوق جدران الخرائب والخنوع.. حملت السلاح والعبوات الناسفة وجابت المدنَ بالسيارات المفخخة.. حصدت أرواح الأبرياء والمتهمين، الصالحين والمعطوبين. وكانت أجهزة الأمن مشغولة بتصفية حساباتها مع «وحوش» المعارضة الوطنية.. ولم تعد تعرف من يقتل من، ولماذا.! سملوا عيون الأطفال في الأحياء الآمنة. قطعوا رؤوساً.. بتروا أعضاء. رملّوا نساء..أحرقوا بيوتاً.. يتموا ودمروا وأشاعوا القلق والرعب. ذبحوا على الهوية وبدون هوية.. أرادوها حرباً طائفية ضد الطوائف، وادعوا حمايتها، ولكنها تحولت إلى معركة بين الخائفين. كادوا يفرضون الحجاب والنقاب على وجه الشمس. وكان الشقيق، قائد السرايا المسعور، حريصاً على السافرات.. يخطف الحسناوات من الساحات والشوارع العامة.. يقضم شعورهن ليلاً،

ويطلق سراحهن قبل بزوغ الفجر حاسرات عاهرات. يمنع تجول الماء في الوديان والأنهار.. يطوق بجيشه الأماكن الأثرية المنسية في خرائب تلال حوران وسهولها.. يحتل مساكن روم وآراميين وأقباط ويهود. يجاور الجن والعفاريت ويتقاسم معهم الذهب والتحف الفنية النادرة. كاد يفرض نزع ثياب الفراشات والورود الملونة والبراعم.. وكان الرجال الحقيقيون يختبئون خلف شواربهم المعقوفة، يبسملون ويستعيذون ويحمدلون شاكرين الله على كل حال..

- «كنت أعلم أنها حاقدة، لكنها تستطيع الآن إذا أرادت أن تعترف بالحقيقة. أن تعيد إلي تاريخي وحسناتي المسروقة.. أن تعترف بأنني رجل قال لا لحاكم ظالم. أن تراني بعينين منصفتين وضمير حي.. أن تتطهر في خريف العمر، من خبائث الماضي ورعونة الشباب.. أن ترمم صورتي المحطمة، كي أعود إلى سرير التراب راضياً مطمئناً..»

لكنها كانت تعتبره مسؤولاً عن قدرها وفشلها وحظها السيئ بامتياز. هو من تخلى عنها.. هو من كذب عليها.. هو من سرق أحلامها وسمّم سعادتها وحطم رجاءها ورمّل جسدها الحي.. هو من كسر إرادتها وكبل طاقاتها وأحبطها واستغلها ثم رماها في منتصف الطريق.. هو من سرق وترك واستحوذ وكذب وقتل واستغل وأذل وأحبط وخذل وتخاذل وظلم وتآمر وانتقم ورمّل وخان.. هو وليس الاستبداد.! وهي الضحية التي ظُلمت وضحّت وكافحت وسامحت وبكت وواست وأعطت دون مقابل وصبرت دون رجاء، وأصبحت في النهاية عدوة لأحلامها. صار من حقها أن تنتقم. وكانت مصممة على الانتقام حتى النهاية. الوادي يصبر كثيراً، لكنه ينتقم أخيراً بسيل جارف يعاقب كل من تجرأ على قضم أرضه.. أصبح الحقد حجراً بحجم قلبها. أصبح حطباً يابساً تحت جلدها. أصبحت المرأة كيساً مليئاً بالفحم والقطران..

- **« كنت أذهب لزيارته في السجن كالحمارة، مذلة مهانة، محملة بالأغراض التي كان يطلبها.. أبشع حالة يمكن أن تتعرض لها امرأة، أن تمر عارية بين طابورين من العسكر، وهي تغطي جسدها بما**

تحمله من أكياس شفافة محشوة بالخبز والخضار والأطعمة المنزلية والكتب والدفاتر.. »

- «كنت أعلم أنهم يفرضون على الزوار استخدام أكياس النايلون الشفافة البيضاء.. وكنت أراها من النافذة وهي قادمة من الباب الرئيسي مثقلة مثل عربة بائع جوال.. ولكنها لم تكن تعلم ما هي العقوبة التي يمكن أن أدفعها ثمناً لهذه الإطلالة الصغيرة..

- كان مجرد الاقتراب من نافذة جهنم تلك يعرضني لأقسى العقوبات. وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى الصعود على ظهر أحدهم نحو تلك النافذة العالية، كي أراها.»

- **«كنت أجمع له الكتب والدفاتر والخبز..»**

- « أعرف أعرف. سمعت هذا.. كانت رمزاً للتضحية والعطاء، وصارت اليوم تعيّرني بالدفاتر والخبز وأقلام الرصاص..

- كانت أمي هي التي تصنع الخبز والفطائر. عادت العجوز مرة أخرى لتصنع خبز الصاج الرقيق الأشقر والفطائر المنوعة والحلوى، وترسلها إلي. كانت تخاف من زيارتي. لا تملك القدرة على رؤيتي خلف القضبان. زارتني مرة واحدة ثم أحجمت..

- كان ذلك في فصل الخريف وكانت الريح شديدة لدرجة أنها اقتلعت تلك الورقة من يدها.. أخرجتها من صدرها وأرادت أن تعطيها للحارس، لكن الريح خطفتها من يدها.. يوم كامل وهي تركض من فرع إلى فرع حتى حصلت على تلك الورقة وخبأتها في صدرها. من دون هذه الورقة لا تستطيع زيارتي. ولكنها ما إن وصلت إلى باب السجن وأخرجتها حتى طارت الورقة من يدها.. تركت العجوز أكياس النايلون، وركضت خلف الورقة كالمجنونة. لعبت بها الريح وتعثرت وسقطت ثم نهضت وركضت من جديد وسقطت.. ولولا ذلك الشرطي الشاب الذي كان يقف أمامها ويبتسم لها والورقة بيده، لما سمحوا لها بالدخول..

- كنت أعلم أنها حاقدة عليّ، ولكنني لم أستطع أدارك السبب. مرّ وقت طويل حتى اكتشفت خباياها وسبرت الوجه الآخر لروحها اليابسة..»

- « لم يكن هو ذاك الذي عاد. لم يكن هو من تخيلته وأردته أن يكون.. ليس لأن جسده تغير، لا، بل لأنه لم يتغير أبداً. فقد رجله تحت التعذيب، نعم. بتروها خوفاً من الغنغرينا، لكنه لم يفقد أي شيء آخر. كان يجب أن يتغير. أن يتبدل فيه شيء ما. كان يقف على ساق واحدة كما لو أنه يقف على ساقين..

- أعددت نفسي كي أجد أمامي إنساناً آخر، لكنه عاد كما كان.. نعم كما كان تماماً. تغير شكله فقط. ولكن جوهره بقي كما هو تماماً.. كبرياؤه صدقه صرامته حضوره حبه طيبته كتبه أوراقه المهربة هاجسه المسرحي القديم.. بقي كما هو. قوياً واثقاً مفعماً بالحيوية والأمل. وكأنه لم يذق العذاب أو الحرمان يوماً من الأيام. لقد خذلني. كان يجب أن يقدر تضحياتي.. أن يعتمد علي. انتظرته طويلاً كي يعود بلا ذاكرة.. كي يفقد البوصلة ويعود إلي عاجزاً ومكسوراً وعدوانياً وفارغاً وحقودا. كنت أريد أن أساعده. أن أستعيد الحياة من خلاله. لأجله..

- ما عذبني وأبكاني أكثر من فراقه، هو أنني كنت أنتظر أن أزيل آثار الحرمان عن جسده وروحه وذكرياته الهمجية.. كنت أنتظر أن يعيش هذه المرة من أجلي أنا. ولكنه عاد كي يعيش مرة أخرى من أجل حلمه العتيق، المسرح. كان ممنوعاً من السفر ومن الوظيفة والعمل لكنه سرعان ما حمل حقيبته على كتفه وانخرط بالحياة من جديد دون مساعدتي، كأن شيئاً لم يكن. لم يكن بحاجة لمساعدتي.»

- «كنتِ تبحثين عن بطولة إذن؟»

- «نعم.. من حقي أن أكون بطلة أيضاً. أن أكون شيئاً ما.. أن ألعب دوراً ما في حياة أحد ما. كان الفرق بيننا بسيطاً فأصبح هاوية لا يمكن ردمها.

- ألست بطلة حقاً!؟ أنا أيضاً كنت سجينة. وكان سجني أكثر قسوة ووحشية, ولكن أحداً لم يعترف بذلك.. كان لديه كل الوقت، وهو قابع هناك في الزاوية، يقرأ ويكتب وينظّر. ولم يكن لدي متسع من الوقت لأقرأ كتاباً واحداً. حتى ابنه الصغير أنس، عندما ظهر في حياتنا من جديد، اعتبره دخيلاً متطفلاً مغتصباً لفراش أمه.. كان يراه من خلف القضبان، لا حيلة له، ولم يكن يتوقع أن يراه في حضن أمه سيداً..

- كنت أستجديه بعض الأوهام والأكاذيب. نعم.. كنت أتمنى في سري، لو كان مريضاً، فأساعده. لو كان مكتئباً محبطاً خائفاً، فأشجعه وأداويه وأقف إلى جانبه وأمنحه قدمين جديدتين. كنت أريد أن أفتخر بشيء ما، بعمل ما، لكنه عاد ليقف على قدم واحدة، كما لو أنه يقف على قدمين راسختين.. وأصبح أكثر حضوراً وتألقاً ونجاحاً.. أصبح مخرجاً مسرحياً وكاتباً، ولم يكن بحاجة إلي. لم يكن يوماً بحاجة إلي..»

- «ولذلك قررت تحطيمه من جديد.»

- «هو السبب. هو من حطمني وحطم نفسه..»

- لم يكن كل الوقت لي. كان معظم الوقت لها.. أصبح المكان الضيق واسعاً.. أصبح المكان ممتلئاً بها. سجنت من أجلها. كي تصبح أكثر جمالاً وتألقاً. كنت أقرأ من أجلها.. أكتب من أجلها. أحزن أتوتر أكتئب أفقد الأمل أتوقف عن التنفس أصمت ثم أبتسم لها.. أتكلم وأفرح وأحلم وأعيش من أجلها..

- كنت أسرق الحصى خلسة من ساحة التنفس. أشذبها وأثقبها وأصقلها كي أحفر عليها بالمسامير والأظافر، أول حرف من اسمها. لم أترك حصاة أو قطعة خشب أو عظم أو بذرة مشمش أو قشرة جوز أو لوز، إلا وكتبت عليها أول حرف من اسمها: «S».. ومن نواة التمر والكرز والدرّاق المزخرف، صنعت لها القلائد والأساور والأقراط العاجية. صنعتها لها.. كانت هي الوطن الجميل والحرية المنشودة والعدل والكرامة الإنسانية..

- أتذكرين كتاب «أجمل رجل غريق بالعالم» الذي أحضرته لي في سجن تدمر.؟

- لم أكن «أجمل رجل غريق في العالم»، بل كنت أكثرهم قبحاً وموتاً.. ذاكرتي مثقلة بالأوزار، والخطايا والرزايا التي تلاحقني حتى الآن، لم تترك لي إلا القليل من الكبرياء الضروري لحياة إنسانية.. لم أكن أجمل رجل غريق، بل كنت أتخبط قرب الشاطئ كي لا أموت غرقاً..

- كنا نتفحص الكتب التي تصلنا من الأهل بدقة هستيرية، على أمل أن نجد بين طياتها إشارة أو علامة ما.. وكان أملنا يخيب في كل مرة، لأن إدارة السجن كانت تعيد الكتب التي تحمل أي إشارة حتى ولو كانت خربشة طفل.. ولكن كتابي «أجمل رجل غريق في العالم «، كان يخبئ بين صفحاته شعرة صغيرة معقوفة على شكل حرف"S" . تناولتها بين أصابعي ووضعتها على راحتي. تشممتها.. كنت متأكداً أن الرائحة رائحتها. ولكنني لم أستطع أن أحدد من أي جزء من جسمها نتفت.. خبأتها في ورقة سيجارة ووضعتها بين طيات ذلك الكتاب الذي كنت قد قرأته منذ زمن بعيد، ولكنني كنت أفتحه كل يوم تقريباً، كي ألقي التحية على شعرتي المعقوفة وأقرأ تلك الصفحات الجميلة التي كتبها غابريل غارسيا ماركيز علني أجد فيها جواباً أو معنى جديداً، حتى أصبحت أضحوكة للآخرين. لماذا أرسلتِ ذلك الكتاب!؟ لماذا جعلتني أقرؤه مئات المرات وأشم رائحة شعرة، كانت في الحقيقة بلا رائحة.. لماذا سمّيتني أجمل رجل غريق في العالم، ولم تحاولي إنقاذي!؟ لماذا جعلتني أحيا حلماً كاذباً!؟ ست سنوات وأنا أحتفظ بشعرة تافهة لا أحد يعرف من أية مؤخرة سقطت، فقط لأنها تشبه أول حرف من اسمها.! وعندما سألتها بعد خروجي، عن تلك الشعرة قالت إنها لا تعرف شيئاً عنها..

- وهل توجد شعرة غير معقوفة.!؟

- لقد علمتني التجربة وربما الخوف، أن أكون حذراً. وإذا كنت خائفاً كل الأوقات، فلم أكن حذراً في أي وقت. لقد مارست الكثير من النشاطات غير المحسوبة. كنت مغامراً متهوراً، بل كنت كما لو أنني أعيش في حالة صراع دائم بين الخوف الدفين والشجاعة المفرطة. بين القسوة الحادة المدببة والحنان المستدير المقعر. وكثيراً ما كنت أربط بين الشجاعة والضوء. بين الخوف والعتمة. وكثيراً ما كنت أسأل نفسي: أيهما أكثر ذكاء؟ الضوء أم العتمة؟ لصوص الليل أم لصوص النهار؟ ومن يسبق الآخر؟ الضوء أم العتمة؟ هل يعقل أن تكون العتمة اللانهائية هذه، هي الأساس الثابت والشمس طارئة متحولة مشرقة غاربة؟ هل يعقل أن تصبح العتمة أيضاً إلى الأبد!؟

- «**لماذا لا تشرب القهوة!؟**

تابع حديثه بحماسة:

- لقد نشأ هذا الكون من العماء، وبعد انفجار عظيم أنار كل المجرات..

- **هذا ما يقوله العلم..**

- إذا كان النشوء بقدرة الله فالله هو النور أيضاً.. هكذا قال زردشت..

- **الشمس موجودة في كل مكان.. قادرة وحدها أن ترانا إلى الأبد. أمام الجدران خلف النوافذ تحت الماء تحت التراب.. لا شيء يستطيع أن يمنعها أو يحجبها عنا.. حتى عندما نكون داخل الرحم ترانا..**

التفت إليها معجباً وأضاف:

- تتحدثين عن الشمس كما لو أنك تحبينها..

- طبعاً أحبها.

- لكننا نعيش في قبر واسع، صدقيني. معتم وواسع.

- كان يقول لي ذلك، وكنت أقول له: أنا لا أكره العتمة المؤقتة. العتمة أنثى والضوء ذكر. ومن العتمة والضوء تتناسل الحياة..

- وماذا كان يقول لك؟

- لا يمكن لحياة أن تستمر أو أن تكون أصلاً، إلا بوجود هذا الثنائي العظيم: العتمة والضوء.. العتمة تنسل الضوء، والضوء ينسل العتمة، وكل منهما سبب لوجود الآخر ووجود الأشياء والأحياء.

- ولكن أين الضوء؟ متى سيأتي!؟

- وكان يقول لي أيضاً: إن ثمن الشمس مرتفع جداً في بلادنا. بلاد الشمس والرمل والغبار..

توقف عن التنفس لحظة ثم صحح لها دون إرادة منه:

- بل كان يقول: ثمن الضوء مرتفع جداً في بلادنا، وليس الشمس..

- التفتت إليه أخيراً وسألته مستغربة:

- وكيف عرفت؟ هل قرأت ما كتابه؟

- قرأت..

- أين؟

- في الدفتر الأسود الصغير..

- وهل التقيت به!؟ هل تعرفه!؟

- كان يعشق المسرح ويكتب الشعر..

- نخرت ساخرة ساخطة:

- نعم. الشعر والكلمات.. الكلمات الجميلة..

وقف فجأة وتلا عليها مقطعاً من شعره:

- «وها أنا ذا أستيقظ من قضبان صدري.

- أطفو على ركبتي فوق السواد.

- أنهض من ساعديّ.

- أجهز ظهري كي تصعد عليه الشمس..»

وقفت بدورها وتفرست فيه بعينيها وفمها:

- أنت تعرفه إذن.؟

بقي صامتاً.. وعندما ألحت في السؤال، هز رأسه وتمتم:

- أعرفه وأعرفك..

عندما خرج من السجن ظن أنه كان محاطاً بكوكبة من الذّبان.

كانت الرؤية غامضة ومشوشة.. ولم يكن متأكداً بعد: هل خرج الذباب معه ليحجب عنه رؤية المدينة، أم كان يحجبه عن المدينة كي لا تراه؟ كان الزمن خيطاً طويلاً خانقاً اختاره كي يلتف حوله كالشرنقة.. وكان كدودة الحرير التي ما إن تنضج حتى تثقب تلك الشرنقة مخترقة خيط الزمن لتحوله في لحظة واحدة إلى عدد لا يحصى من الأزمنة.. وكان من المستحيل عليه بعد ذلك وصل ما انقطع من تلك الخيوط الرفيعة المتهتكة..

- «بعد غياب قسري دام قرابة عقد من الزمن، عدت إلى بيتي صبيحة يوم بارد من كانون أول عام ١٩٩١ م.

- عدد قليل جداً من الناس كان يعلم أين كنت، ولكن لا أحد يعلم لماذا. حتى أنا لا أستطيع الإجابة بدقة عن مثل هذه الأسئلة المحرجة: أين؟ متى؟ كيف؟ لماذا.؟ رأوني كلهم عندما أخذوني من الصف في مدرسة المشاة العسكرية. نسجوا حولي القصص والحكايات، ومع مرور الوقت نسوها ونسوني. حتى القصص تموت ولا يبقى منها سوى شظايا من زجاج يصعب ترميمها..

- أعرف تماماً ما هو اسمي. أستطيع أن أبوح به لأي كان. وأعرف أنني أصبحت ممثلا مسرحياً بساق خشبية.. وأعرف بالتأكيد بوابة بيتنا الحديدية السوداء المثقوبة. أستطيع أن أجدها بسهولة ويسر، وأتعرف حتماً على زوجتي الوحيدة وابني الوحيد أنس، والحسون الوحيد الملون «سنفور»، الذي صنعت من أجله قفصاً من الغيم بحجم شرفة..

-كثيراً ما كنت أفقد البوصلة، وأنا عائد إلى بيتي، فأدخل في الزقاق الخطأ، أو أنسى المنعطف ساهماً، لأتذكره فجأة وأعود أدراجي إلى البوابة الحديدية السوداء، المبقعة بالصدأ. وكثيراً ما كنت أبدأ البحث الحثيث في كل جيوبي، عن ذلك المفتاح النحاسي الصغير الذي كنت أنساه غالباً داخل البيت، فأقرع البوابة أخيراً وأنا أنتظر متردداً خائفاً أن تفتح لي امرأة غريبة.. وكثيراً ما كان يحدث ذلك. أخطئ البوابة وأقع في الحرج فارداً أصابعي أمام وجهي، معتذراً، خائفاً من صفعة أو بصقة بحجم كف، معرضاً نفسي، بسبب ذلك، لفضيحة خرقاء.. لكنني هذه المرة، كنت واثقاً من نفسي أكثر مما يجب. فمنذ زمن طويل وأنا أحلم بهذه العودة الخرافية، وأتخيل تفاصيل هذا المشهد المشتهى وخريطة الطريق العتيقة. فهل تخونني الذاكرة بعد كل هذه السنين؟ هل أفقد الاتجاه ولا أجد مكاناً أتجه إليه!؟»

- « كنت أحمل خرجاً من الخيش وحقيبة يد تشبه حقيبة المطهّر أيام زمان. حقيبة بالية منتفخة جرباء، محشوة بالكتب والدفاتر العتيقة والمخطوطات، وبضعة أكياس ممتلئة بالأسمال، وآلة عود من صنع يدي، تم تثبيت أضلاعها وسد ثقوبها بواسطة العجين.. مفلطحة هجينة، لا تشبه القيثارة ولا تشبه العود.. أخرج من ذلك الشارع المقابل لكازية الجمارك، الشارع الذي بقي مقفلاً بالحواجز والمتاريس، لمدة تزيد على ربع قرن..

-كان قد التقى بنا جنرال كبير، وأخبرنا أن عفواً قد صدر عن سيادة الرئيس، وأننا مواطنون صالحون، وقد جهز من أجلنا ثلاث حافلات خاصة لنقلنا إلى ثلاثة أماكن مختلفة: كراج المنطقة الشمالية، كراج المنطقة الجنوبية، ومركز المدينة.. ولست أدري لماذا طلبت منه أن أخرج مباشرة مشياً على الأقدام. ينظر الجنرال إلى قدمي المقطوعة ملياً ثم يسمح لي بالذهاب، فأحمل أسمالي وأخرج من ذلك النفق

المعتم إلى سرداب عريض مقفل بحواجز الحديد والحراس.. أقطع شارع الجمارك قافزاً بين عكازيّ، وعلى الرصيف المقابل أمام محطة الوقود تماماً، أقف وحيداً تحت المطر. وأتمكن أخيراً من إيقاف سيارة صفراء كتب عليها «أجرة». أضع أسمالي في المقعد الخلفي بارتباك واضح وأهتف بثقة وحماس:

- «الكيكية».. بتعرف الكيكية؟

- مو حي الأكراد بركن الدين؟

- إي..

- إي تفضل..

- حاولت أن أبدو شخصاً عادياً وأنا أجلس بجوار السائق، ولكنني في الحقيقة لم أكن أتقن هذه اللعبة.. كانت أحشائي ترتجف، وكان فمي يرتعش معها، وأسناني مطبقة بقسوة على بعضها.. وكانت عيناي صغيرتين أكثر مما يجب، ورجلي تؤلمني، ولساني ناشفاً غارقاً خلف فكيّ، وجلد وجهي مشدوداً كقناع المأجورين.. ولكنني كنت أجلس، في سيارة أجرة ويداي طليقتان..

- نظر السائق مستغرباً هيئتي ولباسي الصيفي وانكماشي، وكاد يسألني إن كنت كردياً ولكنه قال بادئاً الحديث:

- بس كان لازم وقفت على هذيك الجهة..

- عن جد!؟ ليش؟

- لإنو الكيكية هيك اتجاها.. مو مشكلة. هلق منلف ومنرجع..

- ويضيف محذراً:

- بس عالكيكية عَدَّادين هه..

- صمتُّ. ماذا يعني بعَدَّادين!؟ لم أفهم ولم أعرف بماذا أجيب. وتابعت السيارة طريقها نحو الكيكية. ولم تكن المدينة صامتة. أبداً. كان ضجيجها

مكبوتاً. وكانت الشوارع أنفاقاً مبطنة بالصراخ. حجارة الأرصفة المطلية بالأبيض والأسود تشبه أنياب سحّاب معدني عملاقاً، يبتلع المارة السيارات، ومع ذلك لا أدري لماذا خيل إلي أنها كانت ترحب بي..

- المحلات تلمع كأزرار العظم في معاطف المساء. المدينة الفيحاء.. عاصمة الأمويين.. جنة معبدة بالنوايا الباهرة والشعارات. عاصمة الأرواح والأشباح. جدة الرجال. مئذنة الصدى. صمت الندى فوق المقابر والرخام. كان بيني وبينها زجاج ورذاذ وما عكسه الضوء من بنايات شاهقة وفنادق ضخمة ومحلات. بوابة الصالحية لم تتغير إلا قليلاً. مسرح الحمراء أصبح هناك على يساري.. شارع ٢٩ أيار.. المركز الثقافي الروسي.. السبع بحرات.. كانت دمشق حولي. هنا وهناك. أمام العينين خلف الستائر تحت الغيم والمطر الطاهر. مطر عادل ولكنه بدا لي عبر الزجاج أنه يشنق قطرات الماء على أسلاك الكهرباء. مطر عادل ولكنه لا ينتمي للشتاء.. لا يغسل الشوارع ولا القرميد ولا يعكس سيقان الأشجار على الأرصفة. وبدت لي المدينة كما لو أنها تركت جلدها مفروشاً فوق الإسفلت، تحت العجلات، وهربت مسرعة إلى الغرف الدافئة، خائفة من حفيف أوراق الشجر ورذاذ الماء. كنت أتفرج عليها وعليّ. يكفي أن أفتح النافذة وأمسك ذيل ردائها. كانت السماء تبكي ببطء ووقار، وما زالت بضع قطرات منها تسيل بيني وبينها، والسائق ما زال يمسك خرقة ويمسح البخار عن الواجهة الزجاجية. كنت أتفرج على وجهي. أخاف أن يكون، ما أراه حقيقة، وأخاف أن يكون مجرد حلم من تلك الأحلام. ولكن المئة ليرة سورية كانت في جيبي. مئة ليرة حقيقية أخذتها من رفاقي عند الخروج، وبضع عشرات كانت لدي. وألتفت إلى أسمالي في المقعد الخلفي.. إلى الحقيبة والعود العجيب. لم أكن أصدق أنني أنا. لن أصدق حتى أصل إلى البيت وأراها. هل ستعرفني؟ لو كان لدي هاتف في البيت. لم تكن الهواتف النقالة معروفة بعد.. هل أدخل إلى

بيت الجيران أولاً.؟ ولكن من سيتعرف علي.؟ كنت أخشى عليها وعلى نفسي من المفاجأة.. لن تستطيع تحمل ذلك.. هل تستطيع.؟

- ويسألني السائق فجأة:

- وين بالكيكية؟

- ارتبكت ورحت أنظر حولي من خلال النوافذ كالأبله.. كانت الرؤية مبللة بالدمع ولكنني كنت واثقاً من أنني أستطيع الوصول إلى بيتي وأنا مغمض العينين:

- هلق بس نوصل بدلك..

- هاي وصلنا. هاي دخلة الكيكية..

- خفف السائق السرعة وانعطف نحو الكيكية متجاوزاً الجسر الحديدي الصغير المبني فوق ذلك المجرور الذي كان ذات يوم نهراً. وما إن وصل إلى مدخل الحي حتى أوقفته متردداً:

- لحظة شوي.. مو من هون..

- لكان منين؟ هي دخلة الكيكية..

- إي بس.. يمكن الدخلة الثانية..

- يمكن؟

- لا أكيد. أكيد الدخلة الثانية..

- كنت أبحث عن الزاوية الطينية والزاروب الضيق ودكان بائع الفول أبو عبدو.. تراجع السائق واتجه نحو الدخلة الأخرى وما إن وصل إلى هناك حتى أوقفته من جديد:

- كإنو في غلط..

- نظر السائق إلي مباشرة وسألني نافد الصبر:

- أخي. إنت شو قصتك؟

-كنت أستطيع أن أخبره بالحقيقة ولكنني خشيت أن يكتشف أمري ويعيدني من حيث جئت..

- سنوات كثيرة ستمر قبل أن أتمكن من سرد الحكاية. كنت أستطيع أن أوشوشها همساً لبعض الأصدقاء والمقربين، ولكنني كنت عاجزاً عن الكلام. وما الفائدة من الكلام.؟ إذا اختصروا الكلام إلى كلمة واحدة، فمن الأفضل لك أن تصمت. وكيف تستطيع أن تقول «لا» في بلد لا يعترف إلا بكلمة واحدة هي «نعم». بلد كان من الأفضل لو سموه / جمهورية نعم/ أو /مملكة نعم/ أو إذا أردت الدقة /جمهلوكية نعم/ نعم نعم هكذا: /الجمهلوكية العربية السورية/ أو جمهلوكية الأسد العربية الديمقراطية..

- نعم كنت أستطيع أن أخبر السائق بالحقيقة ولكني اكتفيت بالابتسام وقلت:

- بصراحة. أنا.. كنت مسافر. صار لي أكثر من عشر سنوات. الدنيا هون كلها متغيرة. فتنا صح. أنا متأكد. بس أي دخلة ما عدت أعرف. بأول الدخلة كان في بيوت طين وخشب وكان هون على الزاويةِ في بياع حمص وفول إسمو أبو عبدو..

- طيب البيت وين؟ بجنب شو؟ ما في ساحة دكان جامع جيران..

- ما بعرف. مو قادر أعرف.. في جامع بس نسيان إسمو..

- جامع النصر؟

- يمكن. إي يمكن..

- ما في غيرو. إذا وصلت لجنب الجامع بتعرفو؟

- أكيد.. لازم أعرفو..

- وانطلقت السيارة من جديد متسلقة أزقة الجبل المتعرجة المغمورة بالماء والوحل. وأخذ المطر يهطل بغزارة. وبدأت أشعر بانعدام الوزن

والتشوش، كلما شممت رائحة المكان واقتربت من ذلك المشهد الغامض المألوف الذي تحول إلى حلم منسي. أخذ قلبي يدق بسرعة، وبدأت السيارة كما لو أنها ترتفع. تطير في الفراغ. تسبح في الضباب. فوق الطين والحفر وجدائل الماء. بين جدران الحارات العتيقة الضيقة وحوانيت الزوايا الصغيرة المنسية التي أخذت أعرفها ولا أعرفها. وكاد قلبي يتوقف، لكني صرخت فجأة عندما لمحت بوابة الحديد السوداء المثقوبة:

- وقّف وقّف..

- وترجلت غير عابئ بسيل الماء الذي غمر فردة حذائي. وقفزت دون عكاز نحو تلك البوابة التي طالما نسيت مفتاحها على الطاولة داخل البيت، ولكن تبين لي أنها لم تكن هي، فبوابات الكيكية كلها حديدية سوداء مثقوبة ومبقعة بالصدأ، وأزقتها متشابهة مثل المتاهة في الكوابيس. لكنه لم يكن حلماً أو كابوساً من كوابيس تلك الأيام، بل حقيقة بسيطة ترقى إلى مستوى الكابوس، أو حلم لا تستطيع تصديقه إذا ما تحقق»..

- «مر وقت طويل قبل أن أستدل على دارنا. لم أستطع حتى الآن، وبعد مرور أكثر من عقدين، أن أدرك سبب ذلك. هل هو التطور أم التشابه بين البيوت؟ أم الثقة الزائدة بالنفس؟ أم الخوف من المجهول؟ أم الشوق والرغبة الجارفة في العودة إلى الأهل؟ أم هي حالة الذهول والمتاهة المرعبة التي تجعلك غريباً عن العالم المتجدد وغريباً عن نفسك.؟

- الرجال يرحلون. نعم. يغيبون ثم يرجعون. ولطالما رحل الرجال ولم يعودوا أبداً. لطالما بدلوا الهواء بالشهيق والزفير ودوخوا ظلالهم بالأحلام والحركة، ثم استراحت منهم الظلال. طريق قريتي لم يعد يعرفني.. طريق قريتي لم أعد أعرفه. لطالما أكلت أصابع قدمي من ترابه الناشف.. ولطالما عجنت الطين فوق راحتيه. كنت أرصف الخطوات رتلاً من النمل يحملني من بيتنا القديم إلى المدرسة البعيدة الجديدة.

لكنه اليوم لم يعد يعرفني. عندما كنت صغيراً، كان السور حول دارنا، شاهقاً.. صار هزيلاً مقعداً. تخلعت أسنانه وبرزت أضلاعه وتقرحت ركبتاه. وهذا الطاعن المحني على عصاه، كدت لا أذكره. لولاه ما علمت أنني وصلت. وكدت أنساه ولكن العصا، التي كانت حصاني ذات يوم، ذكرتني أنه حقاً أبي. لم تنتبه لقامتي بوابة الحجر. لم تهبّ الريح يوم عودتي.. لم ترقص الأشجار. سألت عن شجيرتي فلم أجدها واقفة. أشجار السنديان اقتلعت من هذا المكان، ورحل الرجال بعيداً ثم عادوا. لطالما عادوا إلى بيوتهم مشياً على الأقدام أو حملاً على نقالة.. ولطالما رحلوا ولم يعودوا أبداً.. وحدها أمي انقضّت عليّ كما لو أنها تسابق الزمن. تعلقت برقبتي وسقطت بين ذراعي عندما رأتني أقف على قدم واحدة.. أصيبت بالجلطة الدماغية وبعد سنتين من الشلل النصفي، ماتت.. أطلقت على الجلاد اسماً جديداً واستراحت..»

- هل كان الحنين إلى تلك الأمكنة حنيناً إلى الأبيض والأسود أم هروباً إلى ألوان الطين؟ هل كان لوماً؟ أم شفقة؟ أم عجزاً مزمناً عن فهم الزمن واستشعار المستقبل عن بعد؟ لم يكن ثمة تطور.. كانت الأشياء كما هي، ولم تكن هي أبداً..

- إنهم يجهلون حجم الأذى الذي تركوه في صدورنا. ولكن مهما كان الثمن فادحاً سنسامحهم ونحن الواثقين بأننا مخطئون. وماذا نستطيع أن نفعل غير ذلك؟

- سنوات كثيرة ستمر قبل أن نفهم الحكاية ونتمكن من إعادة صياغتها. سنوات كثيرة ستموت قبل أن تترك الحكاية بيتها القديم وتخرج إلى الشارع، كما نريدها، مزوقة بالألوان والكلمات الحقيقية..

- «كانت الكلمات عالقة بين المرايا.. ولم أكن أستطيع السماح لها بالخروج قبل أن أتمكن من تمشيط شعرها وتسليحها بخناجر الكحل..»

- «لن يسمحوا لك بنشرها»

- «لا بأس. نحكي الحكاية بعد الموت..»

- «بعد الموت بعد الموت..»

- «أنا لا أتحدث، عن حرية البشر فقط، إنما عن حرية الساحات والشوارع والأرصفة. عن حرية الماء والهواء. عن حرية البلاد. عن علاقة البحر بالشواطئ والشجر بالعصافير. عن علاقة الزهر بالنحل والتراب بالجثث. إذا كنت تخافين من الموت، فلا شيء يمكن أن يودي بحياتنا أسرع من الصمت.»

- «أنا لا أخاف من الموت بل من الذل..»

- «لا شيء أكثر مذلة من الكلمة التي لا تُقال..»

قهقهت بشراسة هذه المرة، تاركة يدها تسقط على ركبته اليابسة..

- كان هو أيضاً يردد تلك العبارة الغبية: « لا شيء أكثر مذلة من الكلمة التي لا تقال».. وما الفائدة من الكلمات؟

توقفت عن الحركة وتحسست مكان يدها من جديد. كانت ركبته قاسية باردة ومدببة. رفعت يدها فجأة وأطبقتها على صدرها فاتحة فمها دون أن تشهق.. تقلصت أعضاؤها فجأة وتجمعت على نفسها كما لو أنها تعرضت للفضيحة.. وهمست خائفة:

- «شو هذا!؟ أنت كمان قطعولك رجلك!!؟»

- فرك عينيه جيداً وأعاد النظر إليها:

- «هذي؟ عصا.»

- «عصا؟ ولشو حاملها؟»

- «عم أتعلم المشي من جديد ..»

توقف عن عض أصابعه وانتبه إلى شفتيها.. كان فمها مفتوحاً مستعداً للصراخ، ابتسمت. تهيأت للكلام ولكنها فشلت.. جلست بجواره وهي تنظر إلى

الأرض، وكما لو أنها أرادت أن تختبره، نهضت واتجهت نحو خزانة في الجدار.. أخرجت لفافة من ورق السجائر الرقيق وقررت أن تقرأ له شيئاً من شعره..

نفخت الغبار عن لفافة من ورق السجائر، فتحتها، وراحت تتمعن في تلك الحروف الدقيقة محاولة أن تقرأها، وعندما عجزت، أخرج من جيبه عدسة مكبرة ومد يده كي تعطيه القصائد، ولكنها خطفت العدسة من يده. اختارت إحداها وبدأت تقرأ ببطء:

- « أيها السيد جداً.»

يا صاحب هذا القفص المعدني الكبير.

لا تطمع أيضاً بالنجوم والطيور.

من جنوب تركيا إلى جنوبي،

لك الجغرافيا والتاريخ والتربية الوطنية والحساب..

ولي فضائي..

وفجأة، رفع رأسه وراح يكمل القصيدة عنها بإلقاء مسرحي خلاب وهو ينظر، بوجه مشرق، إلى ما وراء الجدار:

- «سماء بحجم رأس

ومداس بمساحة رغيف..»

حدقت فيه بعينين واسعتين وراحت تستمع إليه مذعورة..

« أيها السيد كثيراً،

يا مالك مفتاح هذا القفل الخرافي.

لي قدماي، ولي خطوتي..

سأحمل ابني على كتفي

وأسري حافياً قبل بزوغ الفجر،

من جنوب بيتي إلى شمال الأرض.

مبارك عليك السهل والبحر والجبل والخرائب.

مبارك عليك الشوارع والمدن والحجارة والتراب.

مبارك عليك بيتنا

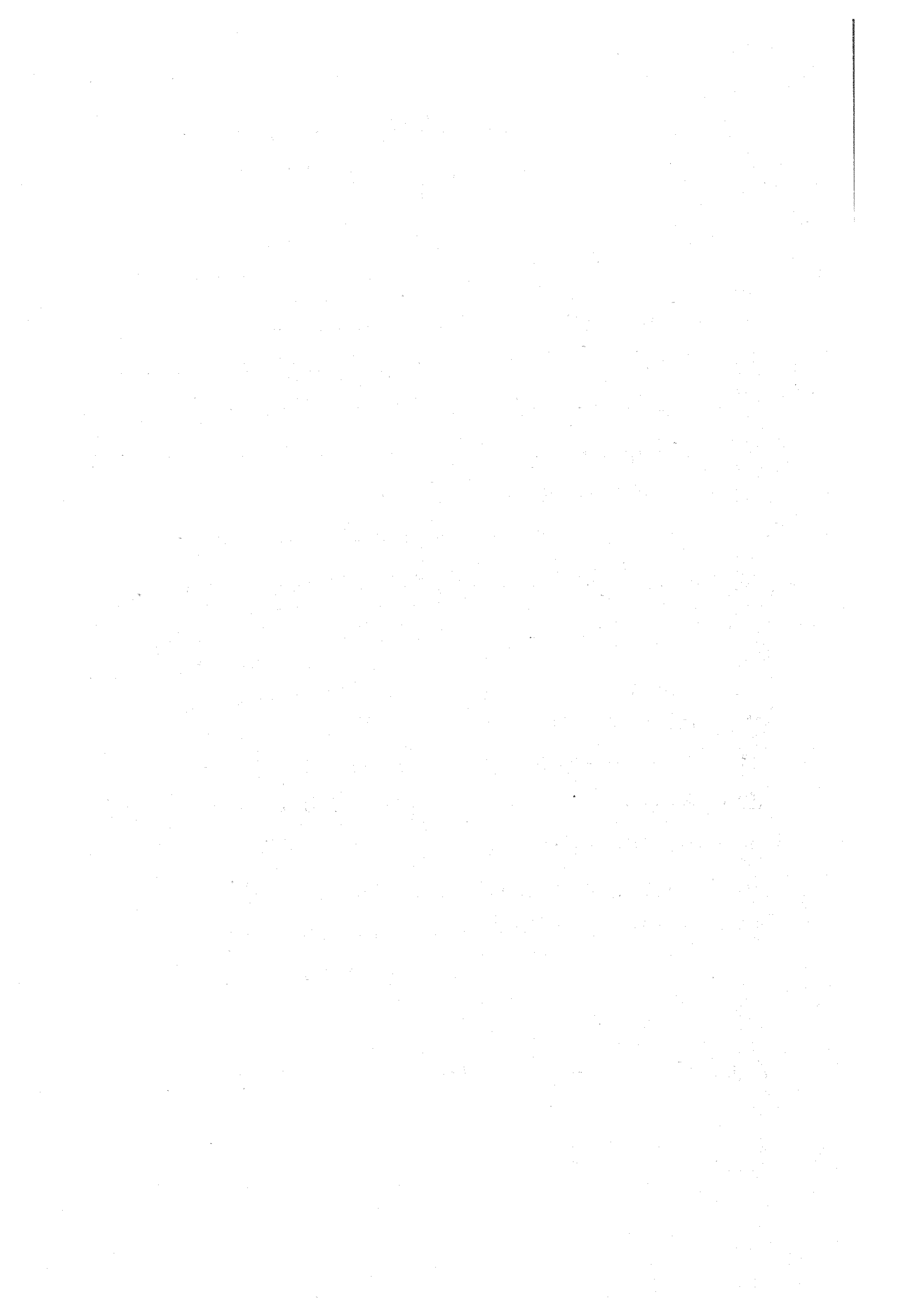
الذي أصبح متحفاً لأظافر قدميك الخالدتين..»

لم تنتبه كيف سقطت اللفافة من يدها وتبعثرت أوراقها.. لم تنتبه كيف تحطمت العدسة المكبرة على أرض الغرفة الضيقة. تذكرت الندبة الغامضة فوق جبينه. كان هو، زوجها أبو أنس، وكانت هي، زوجه أم أنس.. عرفت عينيه وعرفت قدميه. ابتعدت عنه وعادت إلى مكانها في العمق. لم تنتبه كيف ارتدت الحجاب وجلست من جديد على حافة السرير المقعر القذر الأصفر، الذي تزينه غلالة مترهلة من خيوط العنكبوت..

بقيت تنظر أمامها واجمة كالظل الخائف من جسمه.. تغطي لحمها بجناحيها مثل غراب مقرور. ركبتاها مضمومتان. حقيبة يدها في حضنها بحجم قفل كبير، ويداها متشابكتان كقيدين من الحديد..

مد يده إلى فنجان القهوة المنسي منذ عشر سنوات. كانت قهوتها قد يبست في قعر الفنجان، وتعفنت.. تركها وخرج متجهاً نحو مقعدين من حجر فوق جرف يطل على ذلك البحر، حيث لم يتغير شيء في المشهد السماوي سوى أنهم نصبوا شباكاً من القضبان الحديدية العملاقة، تعزل اليابسة عن الماء أو الماء عن اليابسة.. قضبان خرافية تقطّع السماء إلى مربعات صغيرة زرقاء موشحة بالغيوم، وبحر زجاجي رجراج، واسع أزرق نيلي، خافق لانهائي، واهب سالب مزاجي، جليل نبيل برّاق...

غسان - دمشق - مطلع القرن الواحد والعشرين



«المزرعة» جائزة للرواية تشرف عليها رابطة الكتاب السوريين (بالتعاون مع المهندس يحيى القضماني)، وقد أعلنت عنها بتاريخ ٢٠١٣/٤/١٧، وتُعلن نتائجها بتاريخ ٢٠١٤/٤/١٧ ليتزامن الإشهار مع الاحتفال بيوم الاستقلال السوري الذي تبنّت الثورة السورية عَلَمَهُ بدلاً من علم النظام الحاليّ.

أعلن عن تشكيل رابطة الكتاب السوريين في المنافي أواسط سنة ٢٠١١ بمبادرة من الكتاب السوريين ياسين الحاج صالح وصادق جلال العظم ونوري الجراح وحسام الدين محمد وفرج بيرقدار وخلدون الشمعة ومفيد نجم. عقد الاجتماع التأسيسي للرابطة في القاهرة في أيلول (سبتمبر) ٢٠١٢ حيث جرى إقرار النظام الأساسي لها، وتثبيت انتخابات الهيئة العامة، وتسمية أعضاء المكتب التنفيذي واللجان الفاعلة فيها.

أصدرت الرابطة أول أعداد مجلتها «أوراق» في آب/ أغسطس ٢٠١٣، كما أشرفت على عدد من الفعاليات الثقافية والفنية في عدد من العواصم العربية والعالمية.

***

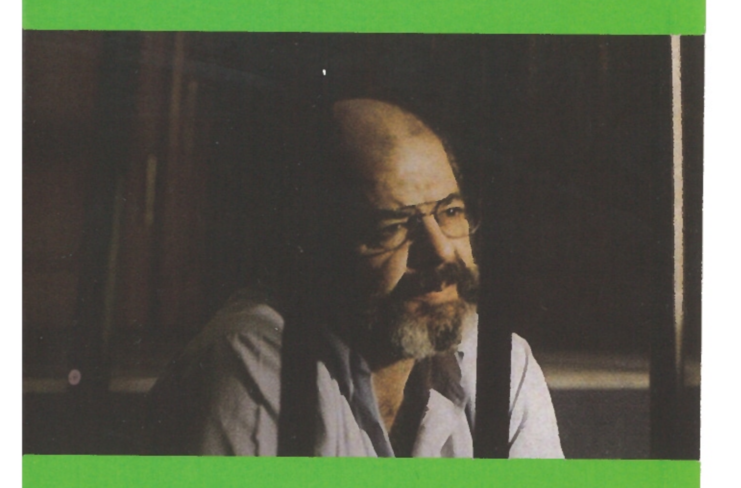
تأسست جائزة المزرعة في مدينة السويداء سنة ١٩٩٧، وبقيت حتى ٢٠١٠، بوصفها النشاط الثقافي المدني الوحيد في سوريا الذي لا تحتكرُه وزارة الثقافة أو اتحاد الكتاب العرب أو المنظمات الشعبية المرتبطة بأجهزة الأمن السورية.

اختير اسم «المزرعة» للجائزة تمجيداً لإحدى معارك تحرير سوريا سنة ١٩٢٥.

أشرفت رابطة الكتاب السوريين بشكل كامل على أعمال لجان التحكيم والمسائل التنظيمية المتعلقة بالجائزة، وساهم المهندس يحيى قضماني في تمويل الجائزة على الشكل التالي:

الرواية الفائزة الأولى تنال: ٨٠٠٠ دولار، فيما تنال الثانية ٥٠٠٠ دولار والثالثة ٣٠٠٠ دولار، كما تقوم الرابطة، بالتعاون مع «مؤسسة المتوسط لتنمية القراءة والتبادل الثقافي» و«دار نون للنشر - الإمارات» في نشر الروايات الفائزة بالمراكز الأولى وتوزيعها وتسويقها عربياً وعالمياً.





غسان الجباعي

مخرج مسرحي وكاتب درامي، ولد في قطنا عام ١٩٥٢، متخصص بالأدب العربي.

اشتغل في المسرح ممثلاً ومخرجاً ثم مُدرساً في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق لمادتي التمثيل ومبادئ الإخراج.

درس في المعهد العالي للفنون المسرحية معهد «كاربينكا كاري» الحكومي في مدينة كييف، حيث حصل على شهادة الماجيستير في الإخراج المسرحي عام ١٩٨١م.

أخرج العديد من المسرحيات كما شارك كممثل في العديد من الأفلام السينمائية ومنها فيلم «وثائقي عن تجربة السجن» مُنع عرضه.

كتب أعمالاً قصصية ومسرحية منها: أصابع الموز، وجنراليوس، والشقيقة، وبودي الحارس، والوحل، ورغوة الكلام.

سجين سياسي و-عاهرة- كان زوجها سجيناً سياسياً، يلتقيان صدفة، في بيتها.

وقبل أن يمارسا الجنس، يبوح كل منهما بذكرياته.. هو يحدثها عن معاناته داخل المعتقل، وهي تبوح له بمعاناتها خارج المعتقل. يتذكران ماضيهما المأساوي، في مطلع الثمانينات، كل من وجهة نظره: هي تعاتب زوجَها المثقف المعارض بمرارة، على تركها وحيدة مع طفلها "أنس". وهو يعاتب زوجته بغضب على فراقها، وعجزها عن فهمه. كاشفان بذلك هولَ ما لحق بهما من ظلم وذل ومهانة، على يد رجال الأمن ونظام الاستبداد الذي حولهما إلى حطام.. لنتبين أخيراً وبالتدريج، أشياء أقرب ما تكون إلى المفاجآت المدهشة..

نص روائي كابوسي، مدته فنجان قهوة، تدوم لعشر سنوات في المعتقل. وتختلط فيه الأزمنة والأمكنة والمشاعر، فيتحول إلى مذكرات سريالية، عن السجن والحرية والمرأة، التي اقتادت زوجها ليلة العرس، ليس إلى قفص الزوجية الذهبي، بل إلى زنزانة من حديد..


ISBN 978-91-87373-56-5

9 789187 373565

دار نون للنشر